

الفصل الخامس

هنرى روبير

٤ سبتمبر ١٨٦٣ - ١٣ مايو ١٩٣٦



«أتعرفين السر الحقيقى للمرتجلين؟...
...أنهم لا يرتجلون أبداً!»

يريبه

محامى العصر الحديث

وهذا طراز عبقرى، سبق بفنه بنى العصر، فغدا أسلوبه اليوم، وفيما بعد اليوم، هو الأسلوب العصرى.

ولما أبنه النقيب «دى مورو جيافرى» قال إن المحاماة فقدت أكبر رجل رفع شأنها منذ عهد «بريه»، وهى أبلغ مقالة عن مكانته فى التاريخ. فلعل «بريه» أكبر رجال المحاماة فى التاريخ الفرنسى، كما كان أعجوبة البلاغة والشجاعة فى مجلس النواب ومجلس الأعيان.

هو الذى حمل لواء الدفاع عن «لمنيه» وعن «شاتوبريان» حين هتف للدوق «دى برى» «سيدى إن ابنك هو الملك» وكان لويس فيليب يومئذ هو الملك... وهو الذى ترفع عن «لويس نابليون» عند ما طلب إعدامه فأنقذ رأسه ليصير بعد سنين جلاله الأمبراطور... ولما عقد «روبير كويلار» موازنة بينه وبين عظماء البيان فى التاريخ الفرنسى الحديث قال: «سمعت «ميرابو» فى مجده، وسمعت «دى سر» وسمعت «لينييه» لكن أحدا لم يعدل «بريه» فى العناصر الأساسية التى يتكون منها الخطيب».

وفى هذا هو إلى جوار المتهم فى إحدى جنایات القتل انطلق المدعى المدنى «النقيب كرسون» يحذر القضاة أن تأخذهم روعة الدفاع الذى سيدل به إليهم فخر للتاريخ القضائى فى فرنسا. فإذا جاء بعده هنرى روبر دون أن يقف أمامه «شيه دستانج» و«ليون ديفال» أو «جول فافر»، أو «روس»، أو «ألو» أو المحامى الذى لم تكف الإمبراطورة «يوجينى» ترى هنرى روبر فى سنة ١٩١٤ حتى ذكرته له بعد وفاته باثنين وثلاثين عاما... أعنى «لاشو» صديق الأمبراطور الشخصى ثم «جاميتا» زعيم فرمسا ثم «باربو»، أو «كارتيه» و«مارتينى»، الذى أنقذ شارل دلسيس بدفعه بسقوط الحق فى رفع الدعوى العمومية لسقوط التهمة. ثم «دى بوى» أستاذ بوانكاريه والرئيس «بوانكاريه» نفسه، رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ومحامى «جونكور» المجمع العلمى والرئيس «بارتو» مؤرخ «ميرابو» و«دانتون» و«لامرتين» ثم الرئيس فيفيانى ثم «شنى» «أفضلنا» كما كان يدعوه «هنرى روبر» والرئيس «والدك روسو» والنقيب «بيو» حفيد النقيبين أو قل الوزيرين «بيو» نقيب نانت و«باروش» «نقيب باريس» و«لابورى» العظيم... إذا جاء هنرى روبر بعد «بريه» دون هؤلاء وأولاء. ولم ير «جيافرى» أنهم أعلوا شأن المحاماة كما أعلى شأن «هنرى روبر» فأعظم بمنزلته فى التاريخ.

والحق أن «هنرى روبيير» سها إلى ذلك الأوج لأسباب خاصة، لقد ظل ربع قرن محامى فرنسا الأول، حتى ليكاد المرء يخاله وصف نفسه في عالم المحاماة بما وصف به «فيكتور هيجو» في عالم الأدب. فيما سماه «مرافعة عن العصور الماضية» بأنه «استوى على عرش الأدب نصف قرن كأنه نصف إله» - وفرنسا أمة محامين تحكمها حكومات محامين.

وكان هنرى روبيير «نقيب الحرب» كما كانوا ينعته، إذ أجلت انتخابات المحامين إلى نهاية الحرب الكبرى الأولى ولم يسمح بالانتخابات السنوية إلا في سنة ١٩١٩ فاقترن اسمه بالنظام القضائى طيلة أيام المحنة.

وكان يلقى في تأبين الصرعى من الزملاء كلمات تغلب الألباب، ويمثل المحاماة في كل معترك. ويحمل رداءها ولواءها عند الجميع، فلما خمد لهب جهنم لم تحب تلك الشهرة اللامعة، حتى ليسأل «مارشال هول» الأستاذة الفرنسية «أوديت سيمون» في أعقاب إحدى مرافعاته: «ترى هل أجدت كما يجيد هنرى روبيير؟».

وارتلعت هذه الكفايات من مستوى الذين يموتون إلى مستوى الذين لا يموتون إذ انتخب عضواً في «المجمع العلمى» وأضحى واحداً من «الأربعين الخالدين».



ولد «هنرى روبيير» في ٤ من سبتمبر سنة ١٨٦٣ وشغفته الفصاحة حبا منذ حدائته الباكرة وعشق الإلقاء. وكان في عهد الطلب ينشد الشعر ويمارس التمثيل أمام الأصدقاء والقرناء، وفي ٢٩ من أكتوبر سنة ١٨٨٥ حلف اليمين لينتظم في سلك المحامين، فلم يكد يقضى مدة التمرين حتى انتخب في يوليو سنة ١٨٨٧ بتأييد النقيب «مارتينى» سكرتيراً للمؤتمر المحامين. وبهذا النجاح الانتخابى أضيف اسمه إلى أجد أساء الرجال في فرنسا مثل الرؤساء «بوانكاريه» «وفيفيانى» «وجاميتا» «وبارتو» «وريبو» والسفير «كامبون» أولئك الذين كانت سكرتارية المؤتمر أولى درجات المجد لهم.

وانتخب معه اثنان آخران يكفى أن تعرف اسميهما لتدرك مقدار ما يتعاون الماضى مع المستقبل. أولها الأستاذ «واتين» الذى تولى توزيع العدالة وشرع الأحكام من كرسبه في رئاسة دائرة محكمة النقض أما ثانيها فهو مفخرة المحاماة الفرنسية «فرنان لابورى».

لم يكد «روبيير» يستمرىء حلاوة الظفر، بسكرتارية المؤتمر، حتى راح يضرب في أعالي «الفوج» ليستجهم، وفيما هو يركض فوق القمم، جاءه خطابان، يسألانه أيقبل أن يكون سكرتيراً للنقيب «درييه» فأبرق بقبوله، وتولى أعمال المكتب في أكتوبر سنة ١٨٨٧.

قضى السكرتير الجديد عامين في مكتب النقيب، حتى قبض الله إليه النقيب، فلم تبرح

ذاكرته ذكراه، إلى أن قضى هو الآخر. فتراه يهدى إليه بعد أربعين عامًا كتابه «المحامي» ويختصه بأروع الصفات في مؤلفاته، إذ كان «درييه» أبا يخلص الحب ولم يكن أستاذًا فحسب، وكان يفتح صدره لسكرتيه، ويفتح أمامه أيضًا أبواب داره.

وفي نوفمبر من عام ١٨٨٨ رحل النقيب والسكّير لمرافعة في قضية «شامبيج» وهو فتى فرنسي سليل أسرة ذات حسب، أتم دراساته في باريس وشارك في الأدب، واتصلت أسبابه «بيول بورجيه» كما يقول «هنرى روبير».

أحب «شامبيج»، في الثالثة والعشرين من عمره، مدام «جريل» زوج المفتش العام الفرنسى للسكك الحديدية فى قسطنطينة بالجزائر، وكانت إنجليزية الأصل تكبره بعشر جيج، تحيط بها هالة من التقى والورع، والأمومة المثلى، والزوجية المرتحمة، لكن تباريح الغرام، بعد عام وبعض عام، كانت كافية لتعاهد فتاها على الفرار معًا، إلى العالم الآخر... بالانتحار، فأطلق عليها مسدسه فى يناير ١٨٨٨ فأرداها، وأطلقه على نفسه فلم يصب منها مقتلًا... وقدم إلى محكمة الجنائيات.

ووصلته القضية مرة أخرى، «بيول بورجيه» فأوحت إلى عميد «الأكادى» الراحل أروع مؤلفاته كتاب «التلميذ» على قول، وعلى قول آخر شهد به «أناتول فرنس» إن الجريمة وقعت مشابهة لما كان يدور فى خيال «بورجيه».

ترافع «درييه»، وترافع فى إثره سكرتيه ففتح لنفسه طريق الخلود.. وقضى بسنوات سبع من الأشغال الشاقة، خففها رئيس الجمهورية إلى السجن. وذات مساء مشت هيئة الدفاع كاملة، بخطى متناقلة، وقلوب وجلة، على ضوء الشموع، لا إلى المحكمة، ولكن إلى المقهى. ولا لتطلع على المستندات، ولكن لتطلع على رقص «أولاد نايل».

وهمس «درييه» فى أذن سكرتيه «يا صديقى ماذا يقول مجلس النقابة إذا رأنا ههنا» فأجابه زعيم الارتجال: «هو بلا شك يحسدك يا سيدى النقيب!».

وبعد أن صحبه «درييه» إلى المجد فى تلك القضية، صحبه ليستجم فى تونس، وكان «درييه» محامياً عن الحكومة التونسية فى فرنسا.

وانقضى عامان، ومات «درييه» بالتهاب رئوى أصابه وهو يبرح «قصر التويلرى» إثر دعوة عند رئيس الجمهورية.

مشى «روبير» قدماً في عالم المحاماة، وكانت قد صممت أفواه «بريه» و «لاشو» و «جول فافر» و «دريه» وأمثالهم من قبلهم.

وكانت الحياة رخيّة في أعقاب حرب السبعين، فلم يك يخشى على الكفايات الرفيعة من حمى الجشع والأساليب التي تخلفها عقد الحياة العصبية، وتهيأت للمحامى الناشئ قضايا هائلة كان من مستواها، فلم يكد بلغ الثلاثين حتى ترافع عن «الأمباشى جومى» في قتل «الام جيروند» سنة ١٨٨٩ وأعدم موكله.

لكن اليأس لم يعرف سبيلا إلى نفسه لأن المحاماة صناعة الأمل، والمحامى الموهوب لا يشبه يومه عن غده، ولا أله عن أمله.

وواتته الفرصة الكبرى يوم ترافع عن «جبريل بومبار» سنة ١٨٩٠ ضد النائب العمومى العظيم «كزناى دى بورير».

في هذه القضية سمع القضاء لأول مرة في تاريخه من المحامى الشاب أن من الجارمين من يقترف الجريمة تحت تأثير التويم المغناطيسى!

ودعت المحكمة أساتذة الجامعات، وأخلت القاعة لإجراء التجارب! وسلط النائب العمومى فيوض بلاغته على هذا الاختراع الخطر، لكن المحامى الناشئ ظفر بالظروف المخففة لموكلته. بل إنه ليظفر من النائب العمومى نفسه بقوله في ختام مرافعته «يا حضرات المحلفين... إنتى لم أطلب إلى الجلاد رأس امرأة إلا مرة واحدة في طول ما حييت لكن المحلفين رفضوا طلبى... ومع ذلك طابت نفسى... فأترك لضما ترمك تقدير الأمور».

ونجت جابريل من المشنقة بعشرين عاماً من الأشغال الشاقة مع أنها هى التي وضعت بيدها حبل المشنقة في عنق المجنى عليه! أما زميلها (ميشيل إيرو) فحكّم عليه بالإعدام...! وفي عام ١٨٩٨ ترافع عن الأطباء مرافعته الخالدة عن الدكتور «لابورت».

وفي سنة ١٩٠٢ ترافع عن المسيو «هبير» عضو مجلس الشيوخ ومدام «هبير» ضد الصيرفى المصرى «قطاوى» وسنقرأ المرافعتين بعد.

وفي سنة ١٩٠٨ ترافع عن مدير الفندق «رينار» في مقتل التاجر «رىمى» فسلمت رأس المتهم.

وفي سنة ١٩١٣ انتخب نقيباً لمحامى باريس فعمل لإطلاق سراح النقيب البلجيكى «تيودور» والنقيب الرومانى «أنطونسكو» إذ قبض عليها لأسباب سياسية في الحرب الكبرى الأولى.

وبعد أن انتهت الحرب ترافع عن المهندس «بيير» في مقتل «كاديو» سنة ١٩١٤ فظفر لمهندسه بالبراءة.

ثم ترافع عن الجنرال «ميشيل» الذي سلم للألمان دون دفاع مدينة موبوج في أوائل الحرب الكبرى الأولى، فقال له في ساعتين ما عجز «لاشو» عن نيله للمارشال «بازان» عن موقفه في الحرب السبعين، بعد مرافعة دامت أياماً ثلاثة!

وفي عام ١٩٢٣ ترافع عن الحسنة البولونية «فالتين أومنسكا» إذ قتلت أختها لتقيها برحاء المرض المزمنا فبرئت، وإن كان القضاء ما يزال يرفض هذا المبدأ إلى الآن. وفي ١٥ من نوفمبر سنة ١٩٣٣ دخل «الأكاديمي» خلقاً «لريبو».

وفي ١٠ من يوليو سنة ١٩٢٤ أنعم عليه بنشان اللجيون دونير من درجة كومانيدور. وفي عام ١٩٢٥ ترافع عن «بويوروش» أمام محكمة جنابات السين فبرأه المحلفون وستلونها بعد.

ثم ترافع عن القسيس «هيجي» في قضية «كولمار» أمام محكمة جنابات السين وختم دفاعه الوطني الرائع بما ختم به عمله القضائي الخالد أمام تلك المحكمة هاتفاً... أيها الأب، صح معي؛ وبأعلى صوتك: فلتحى فرنسا.

وبنى بيئت له محام من نقابة باريس غدا فيها بعد رئيساً لوزارة الحرب في سنة ١٩٤٠ هو «بول رينو».

وكانت آخر كلمة له في المجمع الفرنسي في فبراير سنة ١٩٣٦ في تأبين نصير الملكية العظيم «جاك بانفيل».

ويومئذ بدا للناظرين، شاحباً، يعروه الهزال، كفيفاً، تنذر حالته بأنه سيرتحل الرحلة الأخيرة عن الدنيا.

وكأنما اتخذت النذر لنفسها موعداً من ١٣ مايو سنة ١٩٣٦، لتحرم المحاماة والمجمع من النقيب الخالد، فجلس في كرسيه بالمجمع «شارل موراس» كاتب النظام الملكي ومحور «الأكسيون فرانسيز» فحل محل الرجل الذي قضى حياته في الكلام والكتابة الرجل الذي قضى حياته في الكتابة لتغيير نظام الجمهورية إلى النظام الملكي!

انقطع «روبير» للتأليف منذ سنة ١٩٢٨ وأخذ عالم الأدباء يقرأ له بعد أن كان يقرأ عنه، وبعد أن كان محامياً عن الأفراد، أصبح محامياً عن المحاماة... وبعد أن كان اسمه يذكر في المناسبات أخذ يدوى في المسامع باستمرار، بكتابات في المحاماة، أو في التاريخ، أو بمحاضراته التي كانت تنشرها مجلة Conférência أو في كتبه «قضايا التاريخ الكبرى» أو «المحامي» أو

«محمى سنة ١٨٣٠» أو «ذكرىات عن المحكمة والمدينة» أو كتابه عن «لويس السادس عشر» أو كتابه عن «مالزرب».

وكان طوال أيامه عزوفاً عن السياسة معتزاً بالمحاماة فلم يغيب عن المحكمة بالانتقال إلى مجلس النواب أو مجلس الشيوخ محتذياً حذو أستاذه «دريه».

وكأنما كتب عن نفسه ما كتبه عن ذلك الأستاذ «كان فى استطاعته أن يكون عضواً فى مجلس النواب أو فى مجلس الشيوخ، لأن رجال السياسة جميعاً كانوا أصدقاء له، تطوق أعناقهم أياديه عليهم، وكان يستطيع أن يصير وزيراً لكن الله رزقه الهداية فأثر المحاماة على ما عداها».

كان كترًا حافلاً بالكفايات، والكفايات فى أمة كفرنسا، وفى وسط كالمحاماة لا يمكن أن تضع.



فما هى تلك الكفايات التى رفعت صاحبها وصاحبنا إلى الذروة؟.

الجواب يتحصل فى فكرة واحدة، هى أنه كان يفهم حقائق قضياه كما كان يفهم عقلية القضاة.

وهذا هو الذى جعله بحق أحدث الأقدمين، وأقدم المحدثين. وبعبارة واضحة هذا الذى جعله مترافعا عظيما فى أواخر قرن البخار، وفى أوائل قرن اللاسلكى، بل هو الذى يسر تبسيط المرافعات «التقليدية» التى كانت منابر لآيات البيان فى أعقاب حرب السبعين إلى ما يستسيغه القضاة بعد الحروب العالمية فى القرن العشرين... هؤلاء القضاة الذين يضعون الساعة أمام عيونهم، فإن لم يضعوها أمامهم، تصوروها مركبة فى رءوسهم... تدق باستمرار...!

نحن الآن فى المحكمة. وها هو ذا النائب العمومى يتراجع «وذلك محام هادى» يكاد ينام، لكنه نهض الآن، يادى الرشاقة، رفيع القامة، قوى الصوت، واضح الكلام، ينطلق فى سرعة غريبة كأنه يخشى فوات الميعاد! إنه يتكلم كأنه يتحدث، وها قد مضت بضعة دقائق دون أن يظهر أنه محام عظيم، ولكنه قد أوغل فى الصميم، وحميت الوقدة، واندلع لهيب النار، وانسأقت الحجج متدافعة معجلة، فهو يضرب يمينا، ويضرب شمالا كلاعب السيف، ضربات منظمة، وأحيانا كثيرة ضربات غير منظمة، تسحر العيون... أو كما شبهوه بالحاوى، إذ يبهر المحلفين بصيحاته وحركاته وإشاراته، بينما هو يلتقط على أعينهم أعظم شىء فى أيديهم، وهو هنا روح المتهم!

وفى عشرين دقيقة أو ثلاثين! يبدو للسامعين أن النائب العام أو غيره كان يسرف فى تبديد

وقتهم، بطويل مرافعاته، ضد رجل ما يزال طاهرًا كالطهر، مبرأً كالمسيح^١ وعلى التاريخ إملأة يسيرة لسمع الناس كلمة القضاء... بل كلمة القدر. تلك كانت صورته وهو يترافع كما رسمها لنا سامعوه ومؤرخوه بل كما تتراءى لنا في كتاباته ومرافعاته. والأسلوب هو الرجل.

حدثنا «هنرى روبر» عن رجل من أرباب القضايا دخل القاعة فبصر بحام يترافع، فتساءل من الأستاذ...؟ وقيل له إنه الأستاذ «فلان» قال... كيف هذا! إنه يتحدث بنتهى البساطة! لا يمكن أن يكون هذا هو الأستاذ «فلان» البعيد الصيت...!!
 فإذا رجعت إلى كتاب «المرافعة»^(١) رأيت الأستاذ المؤلف يدخل قاعة محكمة جنبايات «ليون» فيتسائل عن محام يترافع ببساطة، ويلقى الجواب في دهشة وإعجاب، إنه الأستاذ «هنرى روبر»!

وفي مقال معنون «فتحت الجلسة» بعث به إلى مجلة Candide فقرأه الأحياء في ٢١ من مايو ١٩٣٦ بعد أن كان قد رفع من سجل الأحياء. محض «هنرى روبر» المحامين النصيح أن يقرأوا مرافعات «والدك روسو» ليتعلموا «فن البساطة والسهولة والدقة» وفي كتاب «المحامى» يهيب بالمحامى أن يذكر أنه يقف أمام القضاء «ليقتع لا ليلمع» وأن القرن السادس عشر قد حمل إلينا رسالة من أجيال الفصاحة القضائية الأولى هي أن (ترافع باختصار ولباقة وإخلاص). من أجل ذلك نجد مؤلفاته كمرافعاته، بينؤها ليخلص منها بسرعة وفي حرارة، وأنت تبدأ قراءة كتبه فلا تستطيع أن تدع الكتاب حتى تصل إلى خاتمته، لا حواشى ولا انفجارات، ولا إطناب ولا محسنات، وإنما أحكام سريعة شاملة على الأشياء والأشخاص.

هذا كتاب (قضايا التاريخ الكبرى) في عشرة أجزاء، يعرض للناس أروع ما اجترحه الضمير الإنسانى من أوزار وحيل وخبائث، وهذه مرافعته الطبية عن الأطباء ترعك بسهولة، وقوة دلالتها، حتى لكأنها دروس تلقى على التلاميذ وستقرؤها فيما بعد. ذلك بأنه كما أسلفنا كان يفهم قضاياها فيعرضها من حيث يجب أن تعرض، وما دام يفهمها فهو قمين بأن يفهمها.

والذى لا يفهم لا يستطيع أن يفهم، وتبسيط الأشياء أصعب من تعقيدها، والغموض في التعبير هو في غالب الأمر أثر الغموض في التفكير.

يسط الواقعة والتعليق معاً ولا يفصل بينها، ففي المحاماة أسلوبان: الأول يسرد الوقائع ثم يناقشها حتى لا يباغت ضمائر القضاة بجدل يجمل تأخيرها وحتى تحتل الحوادث مكانها من

(١) الأستاذ حس الجداوى.

الأذهان. والثاني: أسلوب الأساتيد في محكمة الجنايات، لا يضعون الوقت في السرد، ثم العودة إلى ما سبق من سرد، وهو في الواقع أسلوب الخطيب الذي لا يريد أن يترك الواقعة إلا بعد أن يصبغها بصبغته، فلا يدع للسامع فترة، يعمل فيها فكره، بل يضطره إلى التفكير في الواقعة والرأى في وقت معاً.

امتاز «هنرى روبير» من رجال الدفاع بالسرعة المتناهية في الإلقاء، وله من جراه السرعة واقعة مشهورة في صدر شبابه.

كان يتراخ عن قاتل عشيقته «شامبيج» فقال وهو يطير في أجواء الكلام «... فعقد العزم على أن يقتل نفسه ثم يقتلها...» ولم يفتن أحد إلى ما في الكلام من استحالة، لأن الجمهور والمحلفين كانوا يسبحون على يديه كالزورق الذى يحمله التيار.

ولذلك الإسراع تجده ينتزع متهاً بقتل أبيه من برائن النائب العمومى بعد ١٧ دقيقة، كما شهدت الأستاذة «أوديت سيمون» بل كما شهدت أيضاً... ينتزع المتهم بالقتل في بضعة دقائق (!) في قضية فالنتين أومنسكا!!

بل إنه ليبرئ المتهم بعد ٢٠ دقيقة لا أكثر ولا أقل، كما تعهد للمحلفين في مستهل دفاعه عن «بويوروش» إذ قتل الرجل الذى نبأه أن خليلته تخونه. وستلونها فيما بعد. وفى سنة ١٩١٣ كتب الأستاذ «فرنان پاين» قبل أن يصبح نقيباً، ومؤرخاً لأستاذه «بوانكاريه»، بل قبل أن يضع نفسه في التاريخ فيصبح محامياً عن «بيتان»^(١) سنة ١٩٤٥ فعلم سرعة «هنرى روبير» بأنه يخشى أن يضع أثر كلامه في المحلفين فينتهى بسرعة لتركهم تحت أثقال براهينه.

وفى الحق لقد مهد له ذلك صفاء عقله وقدرته على الارتجال، ذلك الارتجال الذى قال عنه إنه نتيجة ترديد الكلام قبل المرافعة حتى ليمسى نفسه «آلة كلام».

يبدأ المعركة بأفكار واضحة، وعبارات سهلة، لينتهى منها بأسرع ما يستطيع - والنصر الرائع هو غالباً النصر السريع - مشدود الوثاق، ما استطاع، بموضوعه، لا يرسم الصور ولا يلقى الحكم، ولا يتفهبق بالألفاظ، ولا يتطلب الشهرة، لأنها دانت له من زمان، يلقى الحجج واحدة بعد أخرى؛ كالفيلق فى آثار الفيلق، وكالانتصار فى أعقاب الانتصار. ويستغنى عن أربعين دليلاً بأدلة أربعة، لها قوة أربعمائه ووضوح واحد... مع القصد فى التفاصيل والسخاء على الدلائل، يعرضها كل عرض، ويصلى التهمة ناراً بعد نار، حتى إذا أوفى على التمام قذف بما يشبه المدفعية الثقيلة تمحو كل أثر، إن كان قد بقى أثر.

(١) رئيس جمهورية فرنسا فى الحرب العالمية الثانية

فلنستمع إليه في نهاية قضية الأطباء يقول ما نجمعه في كلمات: إنما هي صيحة تحذير للهيئة الطبية قاطبة... فإذا كان الطبيب منهم يقاد إلى المحكمة ليحبس ويلوث، لأنه واجه حالة خطيرة فأجرى عملية لم تنجح، فالخير له كل الخير، أن يمتنع، ويدع المريض يموت ذلك الموت الجميل... ذلك نظام وقوف الأطباء مكتوف الأذرع أمام الأثم. نظام «دعه يموت»... حذار أن يسيطر عليه هذا التأثير المؤلم في ساعة تستوجب أن تتوافر عنده حرية نفسه في كمالها، واتزانه في تمامه، فيتذكر الطبيب أن شرفه كله، وسمعته كلها في الميزان... إن العدالة نفسها، بذلك البطش الذي ليس من سمات العصر، ستتكاثر في أن يزيغ بصره وترتعد يدها...



كان يشرح ارتجاله بقوله «أنا لا أفكر في الكلام حين ألقيه» ويقول «أنا لا أحضر مرافعات مكتوبة، وإنما أترافع بيني وبين نفسي على انفراد وبغير صوت، لا أتكلم، وإنما تجرى العبارات في مخيلتي إذ أمشي، أو حين أكون في عربتي، وفي المساء تتوارد لدى خواطر ذات بال» وهي عبارة تشرح للقارئ حالة كان يشهدها سامعوه عندما تفتتح الجلسة فتبدو عليه علامات الانفعال.

ذلك بأنه، إلى جوار هذا النشاط الذهني والكلامي الذي يعترك في كيانه، يحمل تبعات ينوء بها أقوياء الرجال.

وكلما جل قدر المحامي فدحت مسؤوليته، والقضايا ليست إلا مخاطرات! فمن ذا الذي استطع أن يتأكد من مصائر الخصومات، أو يتحكم في طرائق لفكر والمدرس^١ القضايا معارك كمعارك السلاح وما أحكمه الفائدة الذي يتفادى المعركة ويصل إلى هدفه والذي يفدها مدرها قبل أن يخوض غمارها، إلى عاياته.

وودياً كن «تورين» يرحف إذا دخل المعركة فيعصف جسمه بقوله «اربعدي أيها الحنك. إيك لا تدرين أين أهدف بك»

وكان «تورين» قائد لويس الرابع عشر أعظم القواد في تاريخ فرنسا قبل «نابليون». وكان أخطب الخطباء «ميرابو» يستهل خطبته كما حدثنا «بارتو» فيبدو عليه الضيق والإرهاق والتردد أمام الكلمات، كأنما يعالج حملاً ثقيلًا ينقض الظهور.

وكان الهم يعترى «لابوري» ليلة الجلسة، وقبل المرافعة، من كثرة ما حضر وقدر. والارتجال دون درس! مجازفة بحقوق الناس واستخفاف بالقضاة. أما ارتجال الألفاظ فشيء آخر.

لا يرتجال الكلام العظيم إلا من حضر مرافعته مرات ومرات، ومرن على مواجهة الأحداث

ومجاهبة الفجاءة، فدانت له أعنة البلاغة... هو لا يرتجل كما يتوهم الواهون، وإنما يستخرج ما في مواهبه من كنوز ظاهرة أو غائرة تظهرها الحاجة، فهذان تحضيران: مباشر وغير مباشر. ولعل هذا الدرس السابق للدعوى، والجهد القديم للتفقه، هو الذى عناه النقيب «شارل شنى» فى محاضراته لفتيات الجامعة فى سنة ١٩١١، إذ حدثهن عن خطواته الأولى بقوله: وكلنا جميعاً نشارك بنصيب ضخم فى تلك الأكذوبة البريئة التى لم ينخدع بها أحد قط... وهى أننا نرتجل عفو البديهة كلاماً سهرنا فى تحضيره آناً الليل وأطراف النهار...!!

بل هو الذى عناه إميل أوليفيه رئيس وزارة فرنسا فى القرن الماضى حينما قال عن زعماء الارتجال «إنى لم أشهد فى حياتى إلا ثلاثة رجال. هم زعماء الارتجال «تيير» رئيس الوزارة و«بريه» عميد المحامين وأنا... ولكن الحقيقة أننا لا نرتجل مطلقاً».

بلى... وهو الذى عناه «بريه» فى قوله لإحدى صديقاته «تحدثين عن الارتجال؟ أتعرفين السر الحقيقى للمرتجلين؟ إنهم لا يرتجلون أبداً!»

وفى أواخر القرن الماضى أشار محام - كان عضواً فى مجلس النواب - إلى أن القضاة سيمسمعون من «باربو» مرافعة أصلها مكتوب فصرخ فى وجهه «باربو»: إن احترامى لهذه الساحة يضطرنى إلى تحضير ما أقول، لكن الذين لا يحضرون كلامهم ويمثلونه بالتناقض يلغون صدوراً رحبة فى ساحة أخرى...

وكانت الساحة الأخرى كما أراد «باربو» مجلس النواب!!

بل إن جوريس الخطيب الاشتراكى وزعيم مجلس النواب، هو الذى يقول «إن احترامى لسامعى يضطرنى لتحضير خطبى...».

وإذا لم تكن المحكمة ساحة للخطباء فإنها أعظم ساح البلاغة خطراً فى العصور الحديثة، ليست البلاغة فيها للفن وحده، أو للجدل وحده، ولا للكسب فحسب، ولكنها لمزاج موفق يدخل فى تأليفه هذا كله وكثير غيره.

ولذلك قالوا إن المحامى ممثل، وإنه غير مستقل، لأنه وكيل يقبده الموكل.

هو سفير ومعبر، ولا يستطيع أن يسفر أو يعبر إلا مرتجلاً، فالارتجال هو الذى ينقل الأثر لسامعيه، مستجيباً لتأثيرهم فيه. والمحامى يخلق فى حركاته، وسكناته، خلقاً من فكره وفمه. ولن يعيش هذا الخلق إلا إذا استمد الحياة من البيئة التى ولد فيها.

وقديماً قال «أرسطو»: إن غرض الخطيب منذ يشرع فى خطبته أن يظفر بالقبول فى عقول سامعيه وأن ينسج عروة من التعاطف بين المتحدث والسامع، فإن السامعين لا تتفتح عقولهم للاستنارة أو للمتابعة إن لم تجمعهم هذه العروة بالمتكلم..

إنما السر في تأثير الارتجال وسحره أنه تصوير لآخر أثر للطبيعة في أنفوس الناس، فتقدم المحجة في الوقت الذي تعمل فيه عملها كاملاً، كالهجمات يقوم بها الجيش في أوانها وفي مكانها. ولا بأس على التحضير إذا كانت المرافعة المحضرة، في خدمة المترافع، ولم يك هو عبداً لها فالمرافعة المحضرة كما قال أحد الفلاسفة عن النقود «خادم نافع وسيد ضار».

إنما يلقي مرثيته ذلك الذي يتلو مرافعة مكتوبة! كأنما يتحدث من بعيد فلا يطابق الحال... والبلغة مطابقة الحال.

روى «أوديبير» أن محامياً بارزاً في أعقاب الحرب العالمية الأولى قصد إلى الجلسة ليرافع في قضية خاسرة، وإذا به يشهد في القاعة محامياً ميزته في الحرب جلائل أعماله، فما كاد يشرع في مرافعته حتى عطف عليه يغمره بتحاياه، ثم انفتل إلى مصاعب الحرب، ومتاعب البشر، وعاد إلى مفاخر الزميل يمجدها.. وتحسن جو الجلسة... وكأنما صفت الساء... وأرهفت الآذان لسماعه، وفاضت أنهار البلغة... ويرى المتهم.

سألت إحدى المجلات جماعة من العظماء منهم «دومرج» - رئيس الجمهورية الفرنسية - و«بريان» رئيس الوزارة و«هنرى روبير» عن أروع الأوقات التي صادفوها في حياتهم فقال «روبير» «... إذا كان المقصود بأروع الأوقات أكثرها تأثيراً فقد عرفت منها ثلاثة... الأول عندما أقسمت اليمين. والثاني حين انتخبت نقيباً. والثالث يوم استقبلتني «الأكادى»... ولا أستطيع أن أبين أروع لحظة في حياتي العملية لأن الوقت الذي يقضيه المحامى في الدفاع من أروع الأوقات، تستعمل فيه كل فصاحتك وبلغتك ومقدرتك لإنقاذ رأس سجين، وتخلق له جميع الظروف المخففة التي لا تحمل بها نفسه، لتقنع القضاة وتسيل دموعهم وتثير في نفوسهم الرحمة والإشفاق والصفح.

وأنى لك التوفيق إلى ذلك إن لم تضع نفسك في إهاب المتهم! لقد يكون المحامى ممثلاً، لكنه مترجم يجب أن يتوافر فيه الإخلاص في الترجمة، فإذا لم يكن مع المتهم بفكره وقلبه، فكيف يستطيع أن يدافع عنه».

فإذا شرع في مرافعته أدار فكره في شتى الجهات يبحث عن متهم غير المتهم ليلقى عليه أفدح أفتال الاتهام، كالمجنى عليه أو، كالشاهد...!

وإذا لم يكن ثمة مجرم آخر فلقد يجد زوجاً لم ينفق خمسة فرنكات لإنقاذ روح زوجته، أو قوماً تسبوا في إحداث الوفاة!! أو تحريضاً أو استفزازاً أو استسلاماً، أو مرضاً كانت فيه خاتمة الحياة، أو تقصيراً من الهيئة الاجتماعية ممثلة في شتى الهيئات والمصالح، إلى غير ذلك من أساليب الدفاع وإن شئت فمن أساليب الاتهام.

فإذا قضى المحلفون له لم يقضوا لموكليه، وإنما قضوا ضد خصومهم!.

وهكذا نقل إلى المحكمة تلك الخطة التي اختطها في الملحمة، الرجل الذي كسب ستين معركة، «نابليون»، أو نقلها عن «هاننبال» للأجيال وهي أن «الهجوم خير وسيلة للدفاع» إذا علم بقيام حلف ضده في وسط القارة أو في شرقها أو في غربها لا يلبث في غرفات «النوبلرى» بل تلقاه أوريا مرتين تحت أسوار «فيينا» ومرة أخرى في قصر «فردريك» العظيم في «برلين» ليصحب ساعته الدقاقة إلى باريس ثم إلى «سنت هيلين» ومرة رابعة تجده في موسكو... أمام الحريق... بل أمام باب اللاتهاية.

ولكن ما الذى يقوله «هنرى روبير» في تلك القضايا التي سلخ المحقق فيها عاماً كاملاً. والتي سوت فيها آلاف الصحف؟.

للجواب عن ذلك نقول إن «هنرى روبير» كان كأنما أقسم أن يتراجع في القضية، ولا شيء غير القضية!.

كان يجيد عدم الكلام قدر ما يجيد الكلام.. يعمد من فوره إلى المسألة التي تحكم القضية، فيظهرها على طريقتة في قوة وسرعة وإيجاز، مدركاً أن الخير للمحامى ليس عرض كل ما في الإضبارة، بل الفن الحقيقي إهمال ما يجب إهماله منها.

وقديماً علمنا أساتذتنا أن فن الحذف يساوى تماماً فن الكلام. والتطويل يفعم الأنفس سامة، ويدفع الأعين إلى الغمض، والأفئدة إلى الاستئامة.

لقد باهى الرئيس... «أوديبير» بأن كل فخاره أنه لم يكن القاضى الذى ينام فى أثناء المرافعات!.. وقال «إن القاضى لا ينام إذا كانت المرافعة موجزة واضحة، فيها حياة...». وبينما يلوم (لك الرئيس الذى قطع على المحامى مرافعته بقوله: انتهت المرافعة... ٥٠ قرنكا غرامة! فلما احتج المحامى قال الرئيس: أنت تعارض! فلتكن ١٠٠!! بينما يزرى بهذه المقاطعات، يفخر بأنه كان إذا رزى برافعة طويلة لا يقاطع المحامى وإنما يلجأ إلى الدسائس!! فيتجه إلى المحامين الآخرين، القاعدين فى انتظار قضاياهم، ويتحدث إليهم فى أدب جم: إني أشير عليكم بتأجيل قضاياكم أسبوعين، لأن المرافعة فى القضية الحالية ستطول... فيحتج الزملاء على تطويل الزميل. ليرافعوا فى قضاياهم... وبهذه الواقعة، البديعة، يختصر المحامى وينجو رئيس المحكمة بنفسه.



كان «روبير» يقول إنه درس «لاشو» دراسة عميقة، لكنك لا تجد فيه مشابه من أستاذه... أستاذ القرن الماضى..

مرافعات «روبير» كانت مرافعات موضوعية مجردة، لا تتخللها الجملجة، ولا الصوت المدوى، ولا الصور التاريخية، ولا العبارات البيانية الخلاصة التي يتبارى فيها «لاشو» مع شاعر القرن الماضي «فيكتور هيجو».

إنما خلف لاشو من بعده «باربو» نابغة الفن التقليدى فى الدفاع، و«لابورى» المهيب الذى يلمع بقدر ما يقنع.

أما «روبير» فلم تكن تمه رسوم الخيال المشرقة ولا طلاوة اللفظ ولا طلاقة الأسلوب، ولا تفخيم المعاني، فإذا وردت صورة من الصور أو حكمة من الحكم فى معرض الدفاع ألفتها منتزعة من صميم الواقع لا من آفاق الخيال. مقتطعة من جوهر اللباب، لا بهرجا يستنار به الاعجاب.

كانت روائع «لاشو» طرزاً أدبية تظاهى مزاج العصر، ووقفات تمثيلية تخلب البصر، يقول للمحلفين وهو يترافع فى سنة ١٨٥٥ عن «رودلف» المتهم بدس السم لعشيقتة «مىمى» «ها إن السماء تدوى وكأنها تكاد تنقض، إنكم تسمعون عصف العاصفة وهزيم الرعد... إن السماء تزجر سخطا على ما فى الأرض من إعتات... إنها تحتج معى على تلكم الإجراءات!!!» أو يقول تلك العبارات العظيمة التى أوحى بها إليه دقائق الساعة ليلة الميلاد، فأنتقدت رأس المتهم، أو تلك الكلمة التاريخية التى سددها إلى صدور القضاة قبل أن يسددها إلى أسماعهم فى مرافعته ضد الجنرال «تروشى» بعد حرب السبعين، وكان «تروشى» قد تهاون فى قضية الإمبراطور، قبل أن يخلع:

إنكم ستحكمون فى قضية الجنرال «تروشى»... ولكن التاريخ سيصدر حكمه على حكمكم... سيقراً التاريخ ما دار فى هذه الجلسات، فحذار أن تضحوا كل شىء مرة واحدة.. فيقول بنو الأجيال المقبلة إن كل شىء فى هذه الأمة قد ضاع - حتى العدالة نفسها. لم يكن «روبير» ينحو ذلك النحو البلاغى فى الدفاع لأن الدنيا تغيرت، والمحاكم تطورت، وضاعت صدور القضاة كأنما ضاقت بها رحاب الوجود، وكأنما تريد أن تصل بالدنيا إلى آخر الدنيا..

وبعد أن كان لدى المحامى من الوقت ما يأذن له بأن يترافع ما شاء، ساعات أو أياما، أصبحنا نجد محامياً - كما روى «هنرى روبر» - يسأله الرئيس قبل المرافعة عما يكفيه من وقت فيقول: ستشغلنى المقدمة ربع ساعة، واستعراض الوقائع نصف ساعة، والمناقشة ثلاث أرباع الساعة أما الخاتمة فخمس دقائق، فيرد الرئيس بقوله «اقتصر على الوقت المخصص للخاتمة... تفضل...!».

إنما تلاميذ «لاشو» ولداته هم أولئك الذين يقولون مثل الذى قال «باربو» فى قضية شركة «قناة بناما» عن «دلسيس» وهو يرأس المؤتمر الذى قرر شق قناة العالم الجديد (قنا بناما) على غرار القناة التى شق بها صدر مصر فى العالم القديم، فأعاد إلى الأذهان صورة «كرستوف كولمب» وهو يحتفظ حتى قبره بالحديد الذى قيده به ملوك وهب لهم عالماً جديداً... وأعاد ذكرى مؤتمر «الصليبيين» إذ أعلنوا الحرب الصليبية ثم قال: «أما فى ذلك المؤتمر فلم يتقرر استرداد قبر المسيح من أيدي الكفار، ولكن عمل المؤتمرين لم يكن أقل خطراً! كانوا يطمحون إلى أن يغيروا تجارة العالم وأن يصلوا شعوباً يفصل بينها ثلاثة آلاف ميل، وأن يعدلوا غشاء الكوكب الأرضى، فيضيفوا بعض «الرتوش» إلى وجه البسيطة كما أبدعته يد الخالق!!».

أو كما قال عن «١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩» يوم عظيم فى تاريخ فردنان دلسيس كانت تخفق فيه أعلام الدول على ثلاثين باخرة حاملة ثلاثة عواهل.. تمر على أعتاب سراييوم لتلقى مراسيها فى خليج السويس بين صيحات الحماسة ترددها كل أرجاء العالم المعمور... ثم عاد إلى أوروبا بعد أن فتح أرض الله لعباده...».

وفى نهاية مرافقته يقول بين تصفيق الحضور «إنك يا حضرة الأفوكاتو العمومى تنعى على «دلسيس» أنه ملأ نفسه بالخيال!! الحملة الصليبية عندك كانت خيالا، والحملة المصرية (حملة نابليون على مصر) عندك كانت خيالا، لأنك تسمى المخاطرات العظمى التى لا تنجح خيالا، إن الانسانية لا تستطيع أن تعيش بغير الخيال...».

أو مثل «فيكتور هوجو» وهو يترافع عن ولده «شارل» ضد عقوبة الإعدام فيقول: «... إننى الذى نشأته فى الثورة على عقوبة الإعدام، فإن شنتم متها فأنا وحدى الجدير بالاتهام...» ثم يقول: «هذه العقوبة التى إذا وقعت على مجرم جعلته يشك فى وجود الإنسانية، فإذا وقعت على برىء جعلته يشك فى وجود الله!...».

أو مثل «فيكتور هوجو» أيضاً وهو يترافع فى هذه القضية وإذا شئت فقل مثل النمر - الأب النصر كما سمعه بعد الحرب الكبرى الأولى - أعنى «كلمنصو» عندما ترفع عن «إميل زولا» عقب «لابورى» فنقل عن «هيجو» تلك الإشارة البديعة إلى تمثال المسيح، وكان حتى ذلك الحين يوضع فى قاعات الجلسات خلف هيئة المحكمة ثم قال «... انظروا وراءكم، فهذه أكبر ضحية عرفها التاريخ لأخطاء القضاة...!!».

وكانت قضية «إميل زولا» تدور حول تخطيط حكم سابق فى قضية «دريفوس»... بل مثل الهلباوى فى قضية «نزاهة الحكم» فى تلك الوثبة الذهنية البارعة، بتلك الآية السماوية الرائعة، عندما رد حفى باشا محمود رئيس محكمة جنائيات مصر فرفض الرد، وراح

الخصوم يوقعون بين الرئيس والمتهم، فتحذاهم الملباوى بالموازنة الهائلة بين المتهم وموسى عليه السلام وبين الرئيس وخالق الرئيس...

لا تجد لتلك التصويرات وأشباهاها مشابه عند «هنرى روبير» لكنك تجد خواطر ممتعة، هي في حقيقتها حجج مقنعة في صميم القضية المطروحة.

المرافع العظيم في العصر الحديث يستفتح مرافعة بصميم الموضوع وصميم الحجج، حتى إذا انتهى من الصميم انتهت مرافعته، أما ما عدا ذلك من الزينة التي تزدان بها المرافعة، فلا ينبغي أن تكون زيادة تزداد من جرائها المرافعة، ويقدر ما يبدو من الأصالة في المزيج بين الصميم وبين الزخرف، ويقدر ما يسلم من العمل والاصطناع، ينجح المرافع العصري في مرافعته...

سنرى من بعد أمثالا لمرافعات «روبير» فترى الحجة في الدقائق الأولى، ونراه ينتهى من مرافعاته إذ تنتهى أدلته، وترى التصويرات البارعة، تستحيل حججاً قاطعة. فلنستمع إليه، يفتح عيون القضاة على الأطباء.

«افتحوا أعينكم على قاعات الدفتريا حيث الأطباء الداخليون والخارجيون عاكفون على أعمالهم، ينتثر الموت من حولهم في الشهقات والزفرات، ليس منهم من تردد أو ارتعد... ارجعوا إلى إحصاءات الحمى الصفراء والدفتريا والكوليرا، وأحصوا عدد الأطباء الذين سقطوا صرعى في ساحات الشرف ضحايا واجبههم وتساءلوا بينكم: أهذه هي الطائفة التي تحلمون بإبادتها...!! هؤلاء البنون البررة للعلم، الذين يصارعون الموت في كل مكان، فيصرعونه تارة، وتارة يصرعهم، لكنهم يستحقون الإعجاب في كل حال!!»

حذار ثم حذار! أيها الذين تتهمون الطبيب عند قيامه بواجبات صناعته دون أن يكون لديكم الصفة أو العلم... حذار أن تتهموا أنتم أيضاً بعدم التبصر والإدعاء. إنكم ستلجئون إلى مستشاريكم العاديين، وهم الأطباء الخبراء، فستكونون تحت رحمتهم، وسيكونون وحدهم هم الذين يصدرن أحكامكم...

وإذا تأثرت العدالة بذلك فإن ضحاياها الحقيقيين سيكونون هؤلاء الذين يراد منكم أن تحمومهم وهم المرضى...».

أو قوله في ختام مرافعته عن بوبوروش «... إننى أرجو أن تبرئوا بوبوروش حتى إذا أوتيت إلى مساكنكم في هذا المساء استطعتم وأنتم تطعمون عشاءكم أن تلقوا على زوجاتكم وبناتكم نظرات تراءى فيها راحة الضمير...».

بل قوله في نهاية قضية البنكير المصرى (قطاوى) بعد ما تحدث عن استعمال محامى الخصم

لنفوذه كوزير لدى قاضى التحقيق «وستشبتون ببراءة مدام همبير أنكم تصدرون أحكاماً ولا تؤدون خدمات...».

فإذا واجهته حواجز القانون ولى وجهه شطر المحلفين فسخر من حواجز القانون في لفتات باهرة، يبدو لك مثل منها حيث يتداول بين أنامله مبدأ «عدم قبول المدعى المدنى في قضايا الربا الفاحش» وقد استقر عليه قضاء المحكمة العليا، فيجبه خصمه برشاقة وقوة تستفزان لنصرتها دواعى الذوق والعدالة، في المحلفين خاصة، كما سنرى في قضية مسيو مدام «همبير» وفي قضية «لابورت» حيث يواجه مسئولية الأطباء فيفويض في إجلال الأطباء، ويتحدى الخائفين من الموت بالعاملين على الحياة.

وكانت وثبات بديته حديث الجميع، كرده على النقيب «درييه» وقد أسلفناه أو ما رواه «جولندن» في أكبر قضايا سنة ١٩٣٢:

وقف «توريز» أمام محكمة استئناف الجنج سنة ١٩٣٢ يترافع عن (فرمون) في تهمة نصب. وكان هنرى روبير يدافع عن «تاكوشيا» المجنى عليه، وكانت نظرية «توريز» أن «تاكوشيا» نصب على «فرمون» فأصلح «فرمون» ما أفسده عليه «تاكوشيا»، واختتم دفاعه بكلمة مسرحية قال: لقد كانت رواية... أما الفصل الأول «تاكوشيا» يضرب «فرمون» والفصل الثانى «فرمون» يضرب «تاكوشيا» وفيما هو يترمل نادى «هنرى روبير» بالنهاية قائلاً: الفصل الثالث: «المحكمة تضرب فرمون».



كان «هنرى روبير» يوصى المحامين بالتمرس وبالتدريب، بأن يكتبوا دائماً ويقروا دائماً، ليتعلموا حسن الأداء فالمحاماة في جللتها حسن أداء، والتمرين العملي مدرسة المحاماة إن كرسى مجلس النواب لم يمنع «بوانكاريه» من أن يظل مساعداً للنقيب «دى بوى» فلم يستقل بمكتب إلا بعد أن صار وزيراً للمعارف، وبعد سبع سنين في مكتب أستاذه. وكان «روبير» يقول مقالة الأقدمين إن سر النجاح هو: «أولاً: العمل. وثانياً: العمل. وثالثاً: العمل».

ولقد يكون المحامى موهوباً، كله كفايات، فإذا لم يجدد نفسه ويزودها بالمعارف، نضب معينه، وغاض ماؤه.

قضى النقيب «شنى» و «باربو» نحو العشرين عاماً في زاوية من زوايا المحاماة لا يتسرب إليها النور. فتزودا في أثنائها بزادها من التاريخ والآداب والعلوم، حتى إذا انقضى ثلث قرن كان «باربو» يفتح كراساتة ليستخرج منها شواهد هي آية الآيات في المحاماة، بل في الأدب الكلاسيك.

وكان الحياء يكاد يقتل «والدك روسو» فلم يكف عن القراءة والكتابة والتمرين حتى صار فخاراً للمحاماة ورياسة الوزارة.

ولقد فطر «باربو» فطرة هندسية أو حسابية، وخلق ضمراً نحيلاً، في حين يحتاج الخطيب إلى روعه المنظر وفخامة المظهر، وكان في صوته خشونة وجفاف، في حين يحتاج المتحدث إلى صوت ينفذ إلى الآذان دون استئذان، لكنه حوّل فطرته الرياضية إلى عقلية «رجل القانون» وجعل جهازه العصبى بالصبر، وأصلح من صوته وجرسه حتى بلغ غاية الدقة والوضوح وانكب على المعرفة يعب منها عباً حتى إذا واثته الفرصة لم تجد رجلاً غمراً، أو محامياً غمراً، وإنما استقبلها محام كما قال «لابروير». «جدير بالمهام العظمى»... قال في تأييده «الثقيب بيسون بيو» سنة ١٩١٠: «إن قليلين من المحامين قد رفعوا شأننا مثلها رفع».

لكن هنرى روبر، عرف الشهرة في صدر شبابه فلم يكن ينعم - أو يشقى - بما سماه «الفراغ الإجبارى للمحامين»، ومع ذلك كان يجبر الزمان وصحته على أن يمنحاه الفراغ والعلم. حتى ليكف بصره في أخريات حياته.

وإذا رجعت إلى مؤلفاته وبخاصة «قضايا التاريخ الكبرى»، تلك القضايا التي تناهز الخمسين عدداً والقضية منها قضية دنيا كاملة، لا تقل مراجعها عن الآلاف من الصفحات - إذن لرأيت كيف بدأ بنفسه في العمل بهذه النصيحة.

لقد كادت يده تسطر في هذا المؤلف تاريخاً كاملاً لروائع المجد الفرنسى، ولبعض المجد الإنجليزى. من دفاع «فولتير» عن «كالا» وقضايا «سان مارس» و«كاميل ديولان» و«مارى ستيوارت» وطلاق «جوزفين» من نابليون» و«لويس الثامن عشر» و«مارى لويز» وموت «نابليون»، و«قضايا السم» و«هنرى الثامن» و«كارتوش»، والمارشال «ناى» و«الوصاية على عرش فرنسا» و«كونديه» والملك «مورا» وفضيحتى «بناما» و«النياشين» و«مارى أنطوانيت» و«عقدتها»، و«لاشو»، و«مدام لافارج» إلخ إلخ ...

فلما قدم للجزء الأول منها زميله في المحاماة وفي المجمع رئيس الوزراء «الرئيس بارتو» اعتذر وهو يقدم «اسماً هو أكبر الأسماء رنيناً في الأسماع، يتألف من لفظين يثيران في الأذهان ذكريات القضايا الخطيرة والمرافعات الكبيرة، وعهد نقابة جليل، وكفايات عظمى وقلب من الذهب...!»

وقال عما عرض له من القضايا: «لقد أقيمت على كل ذلك نوراً بيعت فيه الحياة وبجعله حاضراً بين ظهرانينا حيباً إلى أفئدتنا.. كانت حياتك تجربة طويلة للطبيعة الإنسانية... ولما أصدر «لامارتين» كتاب «الجيرونديين» قال له «ديماس» الكبير قالت الكبرى، إذ هنأه، إنه «ارتفع بالتاريخ إلى مستوى القصاص» - لكنك لم تخلط بين التاريخ والقصاص... لقد كان

كلامك القوى، المعجل، المحدد، معبراً عن شعور حر من المؤثرات يحكم منزهاً عن الغايات... والتاريخ كما فهمته هو البعث من جديد مع الموعظة...».

وقال: «... لقد أطربني كتابك فأليك تهنئي ككاتب - وإني لأنقصك قدرك كخطيب، إذا قلت إننا لم نخسر شيئاً بعدم استماعك. فالكلام عمل لا تجزئ عنه القراءة لكن كلامك مهما قيده الكلمات يحتفظ بالحياة، وبالنبرات، والقوة، والحركة، الملائى بالمتعة وبالحيوية التي لا تقاوم...».

في هذه الكلمات الجامعة تلخيص شامل لفن «هنرى روبير» في الكتابة أو في المرافعة. وبهذه المؤلفات علم النقيب العظيم المحامين بالقدوة ما علمهم بالقلم، أن المحاماة كفاح دائم في سبيل المعرفة كما أنها كفاح في سبيل العدالة.



لقد ترامت حدود المعارف القضائية إلى أبعد مما يبلغه الفكر العادى، وأضحى لزماً لنجاح المحاماة. ما يلزم المبرزين للنجاح في الحياة، من التزود بيزاد عظيم من العلم، بالعمل اليومى المرهق المتصل.

ولئن قيل إن المحامى يشبه الممثل، إن تبعات المحامى لأجل. فالممثل يحفظ دوره عن ظهر قلب، ليتلوه على متفرجين جاءوا ليستمعوا، أما رجل الدفاع فيواجه خصوماً وقضاة أشربوا في قلوبهم الشك، تساقط عليه الفجاءات من منصفهم، لا يروعهم الاضطناع ولا الإبداع، وإنما يخضعون للإقتناع، بالعلم، والدليل الناهض.

لقد أوشك «مارشال هول» أن ينتزع رأس بنت، وسدون، من المشنقة كما انتزع رأس لورنس وغيره لمعلوماته في المجوهرات والسموم والسلاح.

وكان إلمام «هنرى روبير» بقضايا التاريخ وبأبطال المحاماة ثروة ذهنية حافلة يسرف في إنفاقها بالكتابة والخطابة والمحاضرة والرافعة.

قال «بيكون»: «القراءة تملأ الإنسان، والكتابة تعلمه الدقة، أما الكلام فيجعله مستعداً». وقال «فنون»: «الخطبة العمومية لا تحضر في ثلاثة شهور، بل يجب أن يكون لدى الخطيب محصول زاخر حصله منذ سنين».

انتهى عهد المحامى الذى يبكى القضاة، وانتهى عهد القاضى الذى يفرق العدل في غمار الفصاحة، كما ضل «هنرى الرابع» في مجلس القضاء حين راعته فصاحة المحامين، عن الخصمين، فقال لكل منها بعد أن ترافع: الحق معك.

وانتهى عهد هؤلاء القضاة الذين برؤا Phyrne عندما عرضها المدافع عنها.. عارية...
لعيونهم...!

انتهى ذلك العهد مذ سن اليونان قانوناً يحول دون حضور المتهم بنفسه أو أقاربه في
الجلسة.. أما في عهدنا الحاضر فلم يعد أحد بحاجة إلى قانون...

وانتهى ذلك العهد في مصر من قبل أن يبدأ ذلك العهد في اليونان، عندما اخترع المصريون
الكتابة فأبطلوا المرافعات الكلامية مخافة أن يؤثر حسن صوت المترافع في آذان سامعيه..
ولئن كانت البلاغة وما تزال عدة المحامين التوايح، إن المحاماة قد لا تعرف النحو. ولكن
إذا سمت لغة المترافع البارع وضع نفسه في التاريخ، حيث تضع البلاغة خطباء التاريخ... في
ذروة المجد.

والتمثيل الرائع، كالورقة الكاسية في يد اللاعب، تسمى هي الورقة العظمى، فتكسب كل
شيء، أو كعصا موسى تلقف كل كيد، إذا تقدمت في الوقت المناسب.

فإذا لم يحالفه الحجاج القوى، والعرض الموفق - والمحاماة في جوهرها عرض موفق، وقوة
منطق - أمسى دفاعه كالفضاحة بهرجا، وربما أمسى صاحبها مهرجا.

الفضاحة والتمثيل في الجلسة على ما شبهها الفرنسيون، مطرقة صاعدة هابطة، يراد بها أن
تصيب شيئاً تطرقه. إلا أن الكرة الغالبة من الطارقين يقضون أعمارهم دون أن يصيبوا... وإن
قضوا في أن يصيخوا - فيذهب طرقهم هباءً وصياحهم هراءً..

انتهى عصر القضية التي تنظر وحدها في دور كامل!... وعدونا عصر اللاسلكى إلى عصر
تخطيم الذرة، وكلها ألم المحامى بموضوعه أوجز، لأنه يكون أنفذ بصراً وأصح تعبيراً وحكماً.

سئل خطيب كبير كم من الزمن يكفيك لتلقى خطبتك؟ قال: ساعات إذا لم أحضر، وساعة
إذا حضرت...! إنها لظاهرة غريبة في تطور المحاماة... أن يقل كلام المحامين في المرافعة عن
كلامهم في الخارج!

وإذا قيل ذلك أيام كانت المرافعات ساعات وأياماً، فكيف وهى تقاس الآن بالدقائق!!
والاستحسان ليس غاية ولكنه بداية، والمحامى الجدير باسمه هو الذى يفهم قضائه أن مرافعته
ليست له، ولكنها لهم، وأنهم لا يخضعون لنظامه وإنما هو الخاضع لنظامهم.

المرافعة «فعل» «ورد فعل» وتوجيه للأذان وللأذهان، وظروف الزمان والمكان.
لقد ترفع محام عظيم عن المدعى المدنى في إحدى الجنائيات الكبرى بالصعيد طول الصباح،
وفى الهزيع الأول من الليل، حتى أعطى المستشارون الكلمة للهلباوى، متبرمين بما سمعوا،
ضجرين مما لبثوا... فاكنتى بأن قال كلمات ختمها بقوله: ألتمس البراءة... ورفعت الجلسة...
وبرئ موكلوه...

والترافع كالخطيب الذى يعنى بالأشخاص ثم بالموضوع، أو بالأشخاص من أجل الموضوع.

وإذا بدأ المحامى والقاضى معه فلا خوف عليه فى الغالب. قال «دى بوى» وكانوا ينعته «بالسيطرة»: إذا لم ينل المحامى استحسان القاضى لمركز موكله فى عشر الدقائق الأولى فتعسا له...!

إن افتتاح المرافعة لحظة عصبية فى تاريخ كل قضية، إذ تفتح عين القاضى وأذنه، على القضية الجديدة والمحامى الجديد. فإذا تسلم المحامى قياده فى هذه اللحظة لم يكده يفلته.

إن الناس لا يعرفون مبلغ جذل القاضى إذا التقى فى القضية بمحام ثقة. لكأنه يهبط إليه من عالم الملائكة، إلى عالم المنازعات الذى يحيط به.

وليعمل المحامى بأسلوبه عن الفكاكة ما استطاع، فالمقام جد، وإذا حانت النكتة فحارت فى شفثيه ألقى بها فى غير المواقف الخطيرة. دون أن يضحك، فلو ضحك كان كأنما يضحك من نفسه! وإذا استطرده فى التنكيت حسبه القاضى يسخر قاعته للمجون.

وليس الزمن الطويل هو التطويل، والدقائق قد تكون تطويلا إذا هان شأن ما يقال، ولا تكون كذلك، إذا كان ما يقال، فى أيام طوال، جديراً بالمقال.

المرافعة كما حدثنا الهلباوى هى عدسة المنظار التى تكشف كل الدقائق التى تشمل عليها الصورة... لتكشف للقاضى التعاريح والمنحنيات الدقيقة التى يعتمد عليها الخصوم فى تكييف المنازعة... والقاضى... فى حاجة لذلك المنظار يساعده على ملاحظة تلك الوقائع..

هى هذه الآلة العالية الصناعة، يقدمها المحامون للقضاة، ليروا من خلال المجهر، مهما بلغ من الدقة والصغر، أحجاما وأجراما لم يكن يدركها البصر.

ويقدر ما يتمكن المحامى من صناعته يستطيع فى الزمن القصير أن يعرض خيرا ما عنده من أمور رئيسية هى مفاتيح القضية، فلا يلام القضاة على عدم السماع قدر ما قد يلام المحامون. ولا يستطيع المحامى الإقناع بالجدل وحده أو بالقانون معه، بل لابد أن يظهر العدالة فى جانبه.

إن محكمة النقض نفسها وهى محكمة القانون أولا، تكاد تقضى بالعدالة دائما...



إلى هذه الكفايات النادرة جمل الله «هنرى روبير» بالتواضع، وقدماً قال «لابروبير»: «إن التواضع مع الكفاية كالظلال مع الصورة تظهرها وتوضحها وتجليها».

لقد ترفع قرابة نصف قرن أمام القضاة والنواب، ولم نسمع عنه حادثاً واحداً كحوادث «لابورى» أو «فيفيانى» أو «إميل أوليفيه» أو «مارشال هول» وقد سلف عنها المقال! أو كأسلوب «بريه» عندما ترفع فى قضية الثلاث عشرة، فقال للنائب العام: «لا... لست حسن النية فى هذا الذى تقول، إن القوانين لا تطبق فى هذه الأيام ولكنها تفسر بما لا تحتمله. إن النصوص ترهق كىما يرهق بها الرجال!» أو كأسلوب «فولتير» عندما قال عن قضاة «كالا»: «لا تذكرونى بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قروء ونصفهم قضاة!».

وإذا كانت المحاماة والقضاء هما الصوت ورجع الصوت، فإن شخصية القاضى ومعنى القضاء شطران لا ينفصلان.

وسرى بعد تحياته للقضاة أو لرجال النيابة فى محكمة الجنايات أو محكمة الجناح بل حتى لهذا المحلف الرابع، الذى يقول له: «لقد وجهت من الأسئلة الدقيقة المنتجة ما طمأننى على متاعب الرجل الذى أداغ عنه!».



فإذا حذر رئيس الجلسة من أن يميل، كاد يفرقه فى سبيل من التحايا والإطراء. أما مع الزملاء والمحامين الحدباء، فكان خير الزملاء، عطفًا وأدبًا وحسن وفاء، يقارب المحامى الشاب ينصحه ويعينه، ويحى الموتى من أقرانه مثلما يحيى الأحياء، إليك مؤلفاته جميعًا تنضح أحلى الذكريات عن الزملاء، وأعظم العبارات عن النائب العمومى «كزنى دى يوريبير» وهو خصمه فى قضية «جابريل بومبار» يروى للقراء من مفاخره فى قضية «رافاشول» المتهم بوضع قنبلة فى مجلس النواب، أن المحلفين كانوا يرتعدون فرحًا إذ جاءتهم كتب بالتهديد، وكان رئيس الجلسة نفسه يكاد يداعبه وهو يتلو عليه صحيفة سوابقه بقوله: «أنا مضطر (١) لأن أذكرك بالأحكام السابق صدورها عليك. إن القانون يحتم على هذا الواجب!» لكن «كزنى دى يوريبير» صاح فى المحلفين «إذا قررتم أن المتهم يستحق الرأفة - ومن المهانة أن نفترض ذلك - فإن هذا لن يكون إلا أثرًا لأخس العواطف وأدناها وهو الخوف! من ذا يخاف فى هذه القاعة؟ إننى سأحرسكم بقوى البوليس إذ تعودون إلى دوركم فى هذا المساء، أما أنا فسأسير على قدمى، دون حاجة إلى حراس. ابعثوا رافاشول إلى المقصلة».

مع ذلك بدا للمحلفين أنه يستحق الظروف المخففة، فلم يحكموا بالإعدام. لكن عناية الله تداركت العدل فقضى بإعدامه فى قضايا أخرى من محكمة أخرى.

أما عن البقية الباقية من الزملاء فتلك تحايا عاطرة لأستاذه «درييه»، وهذه أمداح تتابع فى

التقييب «مارتيني»، وتقدير لا حد له للمخالدين «بوانكاريه» و«بارتو»، و«دى بوى» و«ملران» و«بريان» ذى الصوت العذب عندما يترافع، وهذا إعجاب لا حد له «بلاورى» وحب «لشارل شنى» وإكبار «لباريو» و«روس» و«ديمانج» إلى آخر هذا الثبت الحافل بالرجال، الذين تتردد أسماؤهم فى مؤلفاته حتى إذا ساورته المنية استمهلها أياماً ليكتب سطوراً لم تحمل الوفاة بينها وبين الناس، تفيض بالتحايا للقضاة، ولرجال المحاماة... هذه المحاماة التى ملأ الوجود الإنسانى عنها بكلام كأنه الألمان.

في محكمة الجنح

١ - (قضية الأطباء)

أو

الدكتور لابورت

أمام محكمة جنح السين (١٨٩٨)

سادق:

سيق الدكتور «لابورت» إلى المحاكمة لأنه حاول أن ينقذ سيدة من الموت، بدلا من أن يقف مكتوف اليدين يشاهدها تسلم الروح.

لقد قام بكل واجبه. ومن حقه أن تبرئوه.

ليست شخصية المتهم وحدها التي تجعل من هذه القضية قضية كبيرة، فلقد عانى من الأسى، والمحنة والمهانة، ما لا يحويه حكمكم، أيًا كان حكمكم، وأضيف إلى بأسائه وخصاصته، ضياع أمله وانتهيار مستقبله.

ولئن كان ثمة عزاء له، إن عزاءه في إيمانه ببراءته، وفي هذه الصداقات التي تحف به، وهذه العواطف التي تحيط به حتى قاعة الجلسة، مثل من التكافل بين الزملاء، خليق بالتحية والإطراء، تضربه جماعة الأطباء للمهن الحرة كافة.

أتراني بحاجة إلى أن أذكر الجمعية الطبية للمقاطعة الثالثة عشرة... أو الجمعية الطبية لجهات البر... أو اللجنة الإدارية لجمعية أطباء فرنسا... أو الذين شهدوا أمامكم لمصلحة المتهم، بما هو جدير به من العطف والاحترام.

إليهم جميعًا، الذين دعوتهم بأسمائهم والأولى لم أذكر أسماءهم، يتوجه دفاع «لابورت» بالشكر، وبخاصة إلى الأستاذ الذي يجله الجميع الدكتور «بينار»، الذي جاء يجابه تهكم النيابة العمومية، ليدافع عن زميل سيء الحظ، برىء....

من أجل بينار، ومن أجل الباقين، سكن الرأي العام بعد ثورة... وإني لأرجوكم يا حضرات السادة، الذين تتهمكم ظلماً، نفوس لم تتح لها المعرفة، بأنكم تدعون الصوت القوي للرأي العام، يلى عليكم بعض تشددكم، أرجوكم اليوم أن تستمعوا للرأي العام...

أفسحوا في ضمايركم سبيل الدعوات والصيحات التي تهتف بالبراءة وافتحو قلوبكم إلى العدالة، والحقيقة، بل والمصلحة الاجتماعية، لا إلى عواطف المواساة والمرحمة.

ليست هذه قضية رجل أو طبيب، وإنما هي قضية «الطب» وقضية «الأطباء»، إن مستقبل الهيئة الطبية كافة في الميزان، ومطلوب منكم أن تقرروا إلى أي حد تصل مسؤولية الطبيب الخاصة، وعند أي الحدود يقف حق التحقيق، وأين تبدأ المنطقة المخصصة للعلم، الملجأ المقدس، الحرم، الذي لا يدخله رجل القضاء.

إنما يترقب الأطباء حكمكم في المدائن الكبرى، وفي بقاع الريف النائية، في كل محلة أو دسكرة، ليعدلوا خطتهم وفقه فيلوزوا عند الحاجة «بالامتناع» تفادياً للمحاكمة. وهكذا تمثل الصحة العامة في هذه القضية، ويقف المرضى والأطباء حيارى، قلقين، ينتظرون كلمتكم.

بل إن الموت نفسه ليخيل إلى، جاثماً أمام جثمان السيدة «فرسكية» يتسمع! مترقباً، نتيجة هذه الإجراءات.

إنني لا أتكلم عن مسؤولية الطبيب في صورة رجل عادي، كأن يجري جراح مخمور عملية جراحية، أو يصف الطبيب باستخفاف دواء دون آخر. فهذه أو تلك حالة رجل أخطأ، وليست مسألة علمية، وفي هذا نوافق بغير تحفظ على المبدأ الذي أعلنه في بداية الاستجواب حضرة رئيس الجلسة «مبدأ تساوي الجميع أمام القانون الجنائي» فمن المسلم به في مسائل القتل الخطأ أن دبلوم الطب لا تمنح صاحبها الحصانة فتجعله بمنجاة من يد العدالة.. إنما الذي تنادى به أن الطبيب ليس فوق العدالة لكنه في نفس الوقت... ليس طريد العدالة...

لقد أوضح السبيل لنا أحد أساطين النظام القضائي منذ كان نائباً عمومياً، نعى به «ديبان» وهو رجل ثقة سواء في علوم الفقه أو في صحة الحكم، فانظروا بأى عبارات محددة بين لمحكمة النقض المنطقة الطبية المحرمة على أبحاث القضاء حيث قال: «من ذا يفكر في أن يفرض على الأطباء أو أى مهنة علمية أخرى مسؤولية ماثلة؟ إن البحث في الحالات المشابهة لا يدور حول العلاج خطأ كان أم صواباً، أو ضارة نتائجه أم نافعة أو كان غيره خيراً منه، أو أن هذه العملية لازمة أو غير لازمة، أو أن تنفيذها كان بمقدرة أم بغير مقدرة، أو أن استخدام أداة خير من استخدام أداة، أو أن اتخاذ طريقة دون غيرها كان يؤدي إلى النجاح - فتلك جميعاً مسائل علمية يتناقش فيها الأطباء، ولا يجوز أن تكون محل مسؤولية مدنية ولا أن تهبث أمام القضاء».

ولما نهجت المحكمة العليا هذا النهج قررت أن مسؤولية الطبيب لا تقوم إلا عن «الخطأ الإختياري للرجل، والإهمال الفاحش الناشئ عن ترك المريض ورفض الاستمرار في العناية

به ورفض زيارته مع طلبها منه»، واستبعدت من المناقشة ما يتعلق بالأمر العلمية.
تلكم هي النصوص والمبادئ القانونية التي نعتد عليها لا نستعيرها من «القانون الروماني» ولا من «الشاعر مولير» كما استعار حضرة الأفوكاتو العمومي في مرافعته. وليست مبادئنا ونصوصنا، مع ذلك، أقل حسبا ولا أدنى حجة!

فلنطبق هذه المبادئ على قضيتنا لنرى كيف أنه، إذا استثنينا حالة الخطأ الجسيم التي لا يمكن كشفها هنا، يضطر الإتهام إلى أن يحتذى بالمنطقة العلمية الحرام، وأن يقيم نظريته على قلة دراية مزعومة في الطب وهو يجري العملية.

وإذ كانت تهمة الجهل وعدم الحيطة، طالما وجهت إلى الدكتور لا بورت في هذه القضية، فإن من الضروري أن أعرفكم به بادی الرأي، وبخاصة من الناحية الطبية.

هو فرع من عائلة ممتازة، يحتل أخوه في تونكين (في الهند الصينية الفرنسية) مركزا ذا شأن بين رواد الحضارة، وكثيرون من أقربائه شغلوا مناصب إدارية ذات بال، وإني لأتجاوز عن ذكرهم، لا لأنهم ينكرونه اليوم، ولكن لأن «لا بورت» ليس من هؤلاء الذين يحتمون بأجناد أقربائهم.

ولما منحته كلية باريس دبلوم الطب بعد عمله بالمستشفيات راح يبني لنفسه مستقبلها. سافر مخترقا المحيط الأطلسي ثمانية عشر شهرا، طبيبا لإحدى البواخر، وعاد إلى باريس يقيم مع أمه في شارع «واجرام» ثم شارع «جوفروي»، لكن العملاء، في أحياء الأغنياء، لا يفدون على الطبيب الناشئ المجهول، إلا قليلا، أولا يقدون أبدا... وإذن فليصنع كطبيب ما يصنعه المحارب من اختيار ميدان المعركة، وليذهب إلى أحد أحياء الفقراء حيث المنافسة أقل، والحياة أسهل.

واستخدم آخر موارده ليعضى أهله من نفقاته، وسكن مسكنا متواضعا أجرته في العام ٣٤٠ فرنكا.

عرف كل الذين عرفوه والذين رأوا عمله، أنه رجل عمل، بحياته، وأنه حيي كما سمعته أمس في هذه القاعة ما أكد لكم أم العمليات القليلة التي أجراها قد استحقت ثناء المرضى والزملاء.

اختار لنفسه لقب «طبيب مولد» وهو اللقب الذي يلومه عليه حضرة الأفوكاتو العمومي! ولكن فيم تلومه؟ أليس يعرف مسائل الولادة؟ لقد أجمع أطباءك الشرعيون أنه لم يجد عن قواعد الفن إذ كان يولد السيدة «فرسكيه» تلك الولادة العسرة، ولقد بين لنا أمس أستاذ المادة الذي لا قرين له، أن الدكتور «لا بورت» علل ببراعة كل ما عمله من أعمال وأنه في

استعماله الملقط، دون أن يحدث ضرراً بأجزاء الجسم الداخلية، قد أثبت خبرة جديرة بالإعجاب حقاً.

لقد كان له كل الحق في أن يحمل لقب «طبيب مولد» مها قلت - يا حضرة الأفوكاتو العمومي - من أنه لم يمارس عملية التوليد إلا مرتين، وإلا فكم من العمليات تتطلب، لكي يستحق تلك التسمية!

أفلا يستطيع المحامي أن يحمل لقب المحاماة قبل أن يترافع أولى مرافعاته أفلا يحمل وكيل النائب العام لقب وكيل النائب العام قبل أن يمثل النائب العام في الجلسة؟ أفلا يسمى قاضي التحقيق قاضي تحقيق قبل أن يجرى تحقيقاً...! أتري يعوز هؤلاء شرف الصناعة إذا استعملوا هذا الحق الذي تنازع فيه الطبيب قبل أن يطول مرانه..

إليك بيان الظروف التي واجهها في تلك الليلة الليلاء - ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٧ محاولاً توليد السيدة «فرسكية» باستعمال الملقط.

بدأ الوضع بداية سيئة في نحو الحادية عشر والنصف مساءً.. إذ علم هنالك من المرضة أن السيدة فرسكية ولدت خمس ولادات من قبل وكانت جميعاً متعسرة، وأن الملقط استعمل في ولادة أربعة منهم، وأنها تعانى آلام المخاض من يوم سابق. وأن المرضة الشابة التي زارتها في بداية الوضع قررت أن ليس ثمة وجه للاستعجال، فبارحتها.

وهكذا تراكمت الأخطاء التي ارتكبتها غيره قبل أن تطأ قدماه عتبة الدار. وسترون في هذه القضية التي اتهم فيها وحده كيف تقع المسؤوليات الكبرى على كواهل غيره ممن جاءوا إلى هذه القاعة يشهدون!

رجعت المرضة في صباح ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٧ فبدا لها أن الآلام قد زالت فانصرفت. ولم يدعها أحد بعد ذلك، فعادت من نفسها في الثامنة مساءً، وكان الكيس قد انفجر بعد الظهر وهي علامة من الطبيعة تنبئها باقتراب الخلاص... فلماذا لم يبعث المسيو «فرنسكية» في طلب المرضة؟

ولو كانت المرضة إلى جوار السيدة، وهي تعرف وضع الجنين المعيب، لبعثت من فورها في طلب الطبيب!.. وإذن لكان محتملاً أن تتفادى كل تلك المضاعفات.. وأياً كانت الحال، فقد كان في الإمكان التصرف بحرية وفي الوقت سعة، فالمرضة لم تطلب مساعدة الطبيب إلا في الثامنة مساءً إذ تراءت لها نذر الخطر. ومع ذلك أفهمها الزوج أنه لا حق له في المعونة المجانية على يد طبيب الإسعاف (الليلي) إلا بعد العاشرة مساءً! وأن عليهم أن ينتظروا!..!

وهكذا يا حضرات السادة، نرى في باريس، وفي نهاية القرن التاسع عشر، أنه يجب على

الإنسان، كى يعالج أو يموت بالمجان، أن ينتظر دقائق الساعة التى تحددها بلدية باريس. حملت لمرضة مسئولية المضاعفات التى نجمت فى الساعتين المذكورتين، ووافقت على انتظار مده كان لها - بل كان عليها - فيها أن تستدعى الطبيب. أما الزوج، وهو العليم من حالات لوضع السابقة بما تتعرض له زوجته من الخطر، فقد امر أن ينتظر!!... مترددًا فى أن يصحى حسه الفرنكات التى كانت معه - كما أثبت التحقيق - فيدفع أجر الطبيب، فهو هذا لأحير الذى لا إصلاح له قد عرض - عن علم - أم العائلة للفضاء، وتلكم هى الخطيئة البائسة ولحماقة البائعة.

لم يتمكن الدكتور «لابورت» من فحص السيدة إلا فى الحادية عشرة والنصف، بعد أن استبانَت الممرضة ألا معدى عن وجوده، فوصل مزودًا بملقطه - وهو يؤكد أن الرسول الذى دعاه لم يخبره إلا عن حاجة الحامل إلى (ملقط) وإنه ليطلب إلى المحكمة إذا خالجهما الشك فى ذلك، أن تسأل هذا الرسول.

وإلى هذا فقد قالت الممرضة أمام «مدام فرسكيه» إن الحالة لا تحتاج إلى استعمال الملقط! هاهو ذا الدكتور لابورت إلى جوار مخدع السيدة البائسة تسوء حالتها حينًا فحينًا، يبذل قصاره لفحصها، على ضوء شمعة يتصاعد منها الدخان، بين نظرات كارهة من الجارات الثرثارات، اللواتى جثن باسم المجاملات، يملأن أسماعهن، وشبعن فضولهن، من آهات السيدة وأناتها، فازدادت سوءا، وكان أول مبادئ الحكمة أن يخرج الطبيب هؤلاء الفضوليات، اللاتى لا عمل لهن إلى جوارها، فكانت حيطة نافعة للمريضة، ونكية بالغة للطبيب!

لقد تجمع هؤلاء المتفرجات اللواتى أصبن فى أملهن، خلف باب، مسدود كمفتوح، فتحولن إلى جاسوسات، خصيمات، ينتقدن كل حركة تجريها يد الطبيب.

استعمل الملقط ثلاث مرات على غير طائل، وتخرج الوضع، وخارت قوى المريضة، فهى تتوجع من أربع وعشرين ساعة، وانقباضات الرحم تجعل الولادة محالا، بل كان الجنين ميتًا فلم يكن يساعد بحركاته فى الخروج، وهذه الوقائع المسلمة تظهرنا على مبلغ الخلاف بين الممرضة والشهود.

شهد المسيو «فرسكيه» والسيدة «هوير» أن الجنين كان ما يزال حيًا إذ باشر «لابورت» تشريح الجمجمة وأن الممرضة سمعت دقائق قلبه، أما هى فقررت أنها لم تسمع لقلبه دقا، وأنه كان ميتًا.

لقد كان على الدكتور «لابورت» فى ذلك الوقت أن يسلك واحدة من ثلاث: إما أن ينصرف ويدع الطبيعة تصنع صنعها، وكان هو الوفاة، ولكن بلا لوم على الطبيب... وكان ذلك دناءة... لا جريمة!.

وإما أن يستمر في استعمال الملقط رغم ما منى به من الخيبة في ثلاثة أرباع ساعة كلها محاولات، فيقضى على كل مقاومة للسيدة، وينزع الجنين، ويمزق جسد الأم، فيرتكب عملا من أعمال الوحوش إذ يقتل المريضة.. ولا جناح عليه.

وإما أن يلزم مكانه ويؤدى واجبه. فيقوم بإجراء عملية خطيرة أفهمته معلوماته الدراسية ضرورتها، والعجلة اللازمة للقيام بها، رغم ما يحيط به من ظروف غير مواتية، من انعدام المعونة الواجبة، والأدوات الخاصة، ومع ذلك يقوم بها من فوره، وحيثا، في الظلام، وفي أعالي الدار... كان ذلك هو الواجب الذى أملاه العلم وذمة الطبيب، ولقد إختار القيام بواجبه.. فجزى بالاتهام..

أبها الفتى التعس: ماذا صنعت!.. لقد كان المخرج لك أن تبرح الدار وتدع المريضة تلفظ أنفاسها الأخيرة في هدوء!.. وكنت ستتقاضى العشرين فرنكا بعينها.. أما الشهرة فأنت العليم بأنها لا تلتمس في العراء، تحت أسقف الفقراء.. لقد كان لك أن تلقى السمع إلى صوت الدنائة فتجوز. أما شرف المهنة فلا شيء لأن المصلحة كل شيء!!!

أفكان من الحكمة أن ينصح المريضة هذا النصح في ذلك الموقف الميثوس منه؟ لقد كانت «مدام فرسكية» في آخر مراحل انهارها بعد المحاولات الثلاث الخائبة لاستعمال الملقط، وكانت العقدة تدنو من حلها الرهيب!.. بصرف النظر عن إرادتها التي أعلنتها إلى المرضة أولا وإلى «لابورت» ثانيا، أنها ترتاع من الذهاب إلى المستشفى.

أفكان عليه كما تقولون أن يعرضها إلى مخاطر المحفة والانتظار الطويل، وقد يكون على غير طائل، لمجئ النقالة - وفي كلمة واحدة يعرضها للموت المحقق وفي الطريق العام. ولقد كانت نائمة ومن المحتمل أن تصحو.

ثم ما الذى كان يفيد سوء استعمال هذا الحق؟ حق الاستعانة في المستشفى بكبار الأطباء لقد كانت الساعة الواحدة والنصف صباحا، وليس في المستشفى أساتذة كبار إذ لا بيت فيه إلا الطبيب المقيم وممرضة، هما أقل خبرة من «لابورت»! وكانا سيلتزمان - في إنتظار الرؤساء الإداريين - إعطاءها العلاجات المؤقتة، وهى هى العلاجات التي عولجتها. حتى جاء الدكتور «بالوا» في الغداة ورأى أن تنتقل إلى المستشفى - فلم يكن يترتب على إجراء النقل إلا أن تستيقظ المريضة لتبقى دون تصرف، في ذلك المكان الذى تكرهه.

وإذن فهل يكتفى الدكتور «لابورت» بأن ينتظر قدوم طبيب آخر أكثر اختبارا؟ ومن يستدعى؟ وبأى صفة! وكم من الزمن ينتظر؟ ومن ذا الطبيب الذى يعلم أن طبيب الإسعاف - «لابورت» - إلى جوار مريضة، فيذهب لينضم إليه، أو ليحل محله؟

الواجب إذن أمام «لابورت» وإن عليه أن يقوم بواجبه...

ولقد تكون نجاة المريضة في إجراء تلك العملية النادرة التي لم يجر بها من قبل إلا على «النماذج» وهو تلميذ، وهو يعرفها، ويقدر عليها، فليقم بها، وهو القاضى الوحيد ذو القول الفصل في إجرائها من عدمه، لأنه يعمل في أخص اختصاصاته كطبيب.

إنه وحده رأى المريضة، بذاتها، في تلك الساعة بذاتها، وهو وحده يستطيع أن يدرك الخطر على حياتها.

وفي هذه اللحظة، الفاصلة، التي لم تك فيها قوة إنسانية أخرى تساعده، استطاع أن يقدر وحده أين، ومتى، وكيف، يتصرف.

والرجل الذى يدرك الواجب إدراكه لا يتردد، بل يعمل العملية من فوره وليعب ذلك عليه من يعيبه، وليعب عليه أنه لم يستعمل الآلة التقليدية، أو استعمل أدوات أولية، فلقد كان من حقه أن يصنع ذلك كما أكد الخبراء وكما تقرره مؤلفات العلماء. لقد صاح البروفسير «تارنييه» بأعلى صوته في أحد المؤتمرات قائلًا: «هل بى حاجة إلى أن أقول: إنه يجب تعقيم الأشياء وتطهيرها!». ومع ذلك عرضت لى حالة مستعجلة فتمت فيها بنصف دستة من المناديل أخرجتها من دولاب المريضة ووضعتها - مطبقة كما هي - في الرحم».

أذكر لكم أخيراً «تروسو العظيم» الذى أجرى عملية فتح قناة التنفس لأول مرة دون أن تكون لديه آلة واحدة من أدوات الطب، إذ أحس بتوقف التنفس في حلق المريض الصغير، فأمسك بسكين مطبخ دون أن يفكر حتى في مسحها، ليفتح فيدخل خلالها أنبوبة ماسورة من الرصاص تأذن للهواء بالدخول انتزعها من جهاز الغازا.

ها هو ذا الابتكار الطبى في منتهى بساطته العبقرية! فإذا نجحت العملية صار الطبيب عظيمًا.. وإذا أخفقت صار أنيًّا. وسقناه إلى السجن..

أفلا نسائل بهذه المناسبة هيئة الإسعاف العامة، التي توفد أطباء حديشين في هذه الخدمات الشاقة، وهي مدركة أن أحدًا منهم لا يملك الأدوات الثمينة اللازمة. لماذا لا تضعها تحت تصرفهم، ولو في نقط البوليس؟.

لقد اضطر الدكتور لابورت إلى أن يطلب من السيدة «فرسكيه» (صندوق أدواتها) فإن إترانه لم يفارقه لحظة - واختار أدنى الآلات منها إلى طلبه، بينما يحدق به جو من السخيمة، تنفت فيه السخط أنفاس النسوة الثلاث الصاخبات المشتركات (الأبونيئات) في كل ولادات الحى، اللواتى خاصته لأنه أدى واجبه بإخلاء الغرفة منهن، فكن سعيدات بإخفافه، سعيدات بأن يأذن لهن إلى الدخول باسم المساعدة، فتقاسمن أعضاء المريضة مشغوفات بما في أيديهن من

غنيمة! تحفزه من مناظر الألم، يتحسّن حركات الطبيب، وهن لا يعرفن شيئاً ولا يستطعن تقدير شىء، لكنهن بما فيهن من حقد وتطلع خائب، يلمنه طوراً لجرايته وطوراً لجبنه!
وياليتها - وياليت المسيو «فرسكيه» مثلهن - فع بالتعليق ولنقد! لقد استجوبت حداهن «لابورت» وعابت عليه جفوته، أما فرسكيه فنزع لآله من بين يديه، وعترض على إدخال الإبرة ثانية، وجاءت أخرى تنزع المقص، وفي هذه الظروف المؤلمة، في وسط هذا المجمع، وهذه الشتائم، بل هذا القسوة، أصر الطبيب على أن يجرى العملية... الطبيب الذي لم يشبع جوعته، ولم يتم كفايته.. الذي أصر في الثانية صباحاً، في ضوء سيء، ومساعدتين سيئين، وأدوات سيئه على أن يجرى بسرعة، عملية من أخطر لعمليات وأدقها! ومع ذلك تلوموه لأنه لم يسبح!

إن الاتهام ليس إلا لهذا - لأن الطبيب جاء لإنقاذها فماتت... فهو مسئول..
تعليل إنساني حقاً! إنساني مع الأسف! فإن فرائصنا ترتعد فرعاً من الموت، إذ نحس أننا دائماً تحت رحمته، فتؤاخذ المنوط بهم أن يدفعوه لإخفاقهم في أن يردوه!!
يحدونا الغرور الزائف إلى أن نكابر في الهزيمة أمام هذا القادر الذي لا راد لقضائه! فنتحول نقمتنا التي لا تنال منه، إلى الطبيب، في ولولة حاقدة، ليست إلا تعبيراً موجعاً عن الضعة والغرور الإنساني!

ذلك هو الباعث الخفي، الحقيقي، القضية القائمة..!!

ولما قبض على «لابورت» بعد ثمانية أيام من إجراء العملية كان يحسب أن العملية نجحت.. وأن محاولاته توجت بتاج العبقريّة... فيا لسخرية الأقدار..
تقول النياية إنها أول مرة يجرى فيها عملية تشريح جمجمة، ويا لها من قالة عجب! أليس واجباً أن يعمل عمل للمرة الأولى؟ إنما المهم: أواجبة كانت العملية أم لا واجبة! لقد اتفق الدكتوران «بنيار وميجرييه» على ضرورتها وكرر أنه كان مستيقناً نجاحها ويبدو أن المرضة كانت تشاركه إعتقاده.

تم التوليد بلا تزييف ولا اضطرابات أو مضاعفات ظاهرة. فهم «لابورت» بأن يفصل، فسألته المرضة أن يكمل للخلاص، فصنع، وزودها بالنصح اللازم ومضى... ولم يستدع بعد ذلك، ولم يكن عليه - كطبيب ليلي - أن يعود.

تلکم هي الملابس جميعاً ليس فيها حادث واحد يشير إلى أنه ارتكب خطأً جسيماً كرجل. أما العملية نفسها وطريقة إجرائها فليس على أن أتكلّم فيها، وليس لكم أن تتحقّقوها.

ومع ذلك فيجب الكلام في درس التوليد الذى ألقاه حضرة الأفوكاتو العمومى للجمهورية..
«وأخذ يناقش تقارير الخبراء والأفوكاتو العمومى» ثم قال: وهكذا تنهار على التعاقب أسباب
الاتهام ولا يبقى منه إلا حاصله وهو يتلخص فيما يأتى:

لم يكن «لابورت» حاذقاً إذا خاطر بالعملية. ولم يكن حازماً إذ لم ينجح فيها!.
لكنك لا ترى، ولا تريد أن ترى، أن هذين النقصين فى الحكمة وفى الحزم، وهما غير ثابتين،
لا يقعان تحت طائلة العقاب.

فى هذه الساعات الفاصلة فى حياة الطبيب، حيث يضغطه الزمن، ويتهدده الخطر، وحيث
الموت فاغر فاه، يشجع الطبيب الهباب، ويتخذ من فوره قراره، ولا معقب عليه فيه إلا العلم
الذى يوحى إليه، والضمير الذى يحكم عليه.

إنك تريد يا حضرة الأفوكاتو العمومى كما تقول أن تضرب فى الدكتور «لابورت» مثلاً
للهيئة الطبية كافة؟ ولكن لماذا تعدون لإصلاح الخطايا إلى انتخاب الضحايا من الضعفاء
والمتواضعين؟

كم من المرضى لفظوا أنفاسهم الأخيرة فى أثناء العمليات بين أيدي كبار الأطباء، فهل
جرؤت على أن توجه إليهم الاتهام؟ لو كان نمة فساد فى الهيئة الطبية - وهو ما لا أود
تصديقه - فاضربوا على أيدي المفسدين! ولكن ابدعوا بالرءوس! اضربوا كبار الأطباء، كبار
الأسماء، وسيستطيع هؤلاء أن يجيبوكم، وعندما يجيء المثل من عل، تكون له رنة فى الأذن!
ولكن أين تبصرون فساداً فى الطب الحديث؟ ألا تبصرون إلا عدم النجاح، ألا تسمعون
إلا صيحات الشكاة؟

أفما رأيتم ما يحيط بكم من ضروب الجسارة وإنكار الذات والتضحيات التى تقدمها لنا الهيئة
الطبية الفرنسية الجليلة، الخصبة فى إنتاج الأبطال والضحايا.

افتحوا أعينكم على قاعات الدفترية حيث الأطباء الداخلون والخارجيون عاكفون على
أعمالهم، ينتثر الموت من حولهم فى الشهقات والزفرات، ليس منهم من تردد أو ارتعد... أرجعوا
إلى إحصاءات الحمى امصفراء والدفترية والكوليرا، وأحصوا أعداد الأطباء الذين سقطوا
صرعى الواجب فى ساحات الشرف، وتساءلوا بينكم أهذه هى الطائفة الثائرة التى تحلمون
بإبادتها!.

هؤلاء البنون البررة للعلم، الذين يصارعون الموت فى كل مكان فيصرعونه تارة، وتارة
بصرعهم، لكنهم يستحقون الإعجاب فى كل حال! الذين يتوارثون أعلى الفضائل وأعظم
الشجاعات: الشجاعة المدنية.

والآن يا حضرات السادة: أتريدون أن تعرفوا إلى أى مكان تقودكم نظرية القسر التى لم يسمع بمثلها فى البلاد، والتى يراد منكم أن تفتتحوها عهدها؟
هل تجدون نظرية (ديبان) أكثر سماحة وملاءمة للأطباء؟
هل ترون تعديلها بالتغافل بالتحقيقات والتنقيب عن المسئوليات؟



حذار! ثم حذار! أيها الذين تهتمون بالطبيب عند قيامه بواجبات مهنته دون أن يكون لديكم اللقب أو العلم... حذار أن تتهموا - أنتم أيضاً - بعدم التبصر والادعاء! إنكم ستلجئون إلى مستشاريكم العاديين وهم الأطباء الخبراء، فستكونون تحت رحمتهم، وسيكونون وحدهم هم الذين يصدرون أحكامكم، فسيكون قضاؤكم تحكما ونتيجة للتزاعات المذهبية، وإذا تأثرت العدالة بذلك فإن ضحاياها الحقيقيين سيكونون هؤلاء الذين يراد منكم أن تحموهم، وهم المرضى.

أجل كل أولئك الذين لا يبدون لإنقاذهم من معجزة، الذين لا ينجيهم إلا عملية ذات خطر، يقبلون إجرائها مع علمهم بخطورها، كل هؤلاء تترأى لهم فى هذا اللحظة الحالية صور أطبائهم وهم يترددون؟

إنما هى صيحة تحذير للهيئة الطبية قاطبة... لهذه الكوكبة من أطباء الريف، الذين ليسوا جميعاً من المشاهير ولكنهم ليسوا أقل اقتداراً على تخفيف الألم وبراء المريض، فإذا كان الطبيب منهم يقاد إلى المحكمة ليحبس ويلوث، لأنه واجه حالة خطيرة فأجرى عملية لم تنجح، فإن الخير له كل الخير أن يمتنع فيدع المريض يموت ذلك الموت الجميل... ذلك هو مقابلهم اليوم يردده الأطباء كافة. أجمعوا رأيهم على أن يجيبوا عن نظرية التفتيش (محكمة التفتيش) بعملية «الامتناع»!

ذلك نظام وقوف الأطباء مكتوفى الأذرع أمام الألم. نظام «دعه يموت».

وإذا كان منهم من يسمو بواجبات المهنة فوق كل شىء أو كان منهم من يخاطر بعمل المستحيل فى مخدع المريض المشرف فحذار أن يتذكر ذلك فى الساعة الفاصلة، فى اللحظة النهائية، وفى يده مبضع الجراح، أداة الفناء، يريد أن يجعل منها أداة بقاء، محاولاً أن يحدث بها الجراحة المنقذة.

حذار أن تطوف بمخيلته عندئذ ذكريات «لابورت» الطبيب الشاحب السجين.. حذار أن تطوف الرؤيا المروعة لهذا الطبيب وهو يجر إلى السجن،

حذار أن يسيطر عليه هذا التأثير المؤلم فى ساعة تستوجب أن تتوافر عنده حرية نفسه فى

كما لها» واتزانها في تمامه، فيتذكر الطبيب أن شرفه كله، وسمعته كلها، وحرية كلها، في الميزان. إن العدالة نفسها بذلك البطش الذي ليس من سمات العصر ستتكافل جميعا في أن يزيغ بصره وترتعد يده!!

إن الدكتور لا بورت أمامكم وستصدرون فيه حكمكم».



لو أني لم أكن أعرف الرئيس الذي يدير هذه الجلسات، أو كنت أجهل المواهب النادرة التي يزدان بها قلبه ونفسه، وتذكرت الكلمات التي قيلت في أثناء الاستجواب - فقوانيننا بنص يوسف له، تجعل القاضي الذي يستجوب هو القاضي الذي يحكم - إذت لأخذتني الرعدة مخافة أن يكون ثمة رأى سابق يعكر الصفو في ضمير القضاء! لكنني أدرك أيضًا أن الرجال أصحاب العاطفة المندفعة، هم أدنى الرجال إلى التسليم بالحقيقة وأكثرهم استجابة إلى الإنسانية والسماحة.

وإلى هذا تطمئن نفسي.

إنني أطرح بين أيديكم شرف هذا الرجل وحرية، وديعة مقدسة أودعكموها وستردها إليها سائلة.

٢ - قضية المسيو ومدام (همبير)

ضد

المصرفى القطاوى

أمام محكمة جنح السين سنة ١٩٠٨

اتهم المسيو «همبير» وزوجته المسيو قطاوى بتهمة الإقراض بربا فاحش وبالتزوير وحفظت الشكوى - فرفع قطاوى دعوى البلاغ الكاذب ضد «همبير» وزوجته فترافع عنها «هنرى روبير»

قال: عندما اعترض الأستاذ «رودلف روسو» - بحق - منذ لحظات على اعتراضات الجمهور الذى تزدهم به هذه القاعة بدرت منه كلمة تحكم على المرافعة الطويلة الشاقة التى بذل فيها مجهوداً اجتماعياً وفكرياً ظاهراً قال: إن أحداً لن يمنعنى أن أقدم «الدفاع» عن المسيو قطاوى.

فلنسجل عليه هذه الكلمة، لأنها تقضى فى كل القضية.

لقد لاحظ فى بداية ملاحظاته - مدفوعاً بقوى الأشياء - أن عليه أن يدافع عن الوزير الذى ترفرف ظلاله على هذه الإجراءات، وغفل عن أمر الحفظ الذى ظفر به المسيو قطاوى ظناً منه أنه ما يزال متبهاً فعلم جاهداً لتبرئته لالاتهام المتهمين الحاليين.

ولقد خيل إلىّ فى إبان مرافعته أننا لا نترافع فى قضية البلاغ الكاذب المرفوعة من البنكير المصرى إيلي قطاوى ضد «مسيو ومدام همبير» بل خيل إلى أننا نترافع فى قضية الربا الفاحش التى يحتل فيها المسيو قطاوى محله الحقيقى فى قفص الاتهام. لقد نجا قطاوى بأعجوبة من محكمة الجنح.. وسأدلى لكم بالأسباب السرية لأمر الحفظ غير الموفق الذى صدر فى الدعوى.

لن أشق عليكم بالتفاصيل ولا بالأرقام، وبحسبى أن أتلو عليكم نتيجة تقرير الخبير، وأن أضع تحت أعينكم تقارير قاضى التحقيق نفسه، وأدع بين أيديكم السؤال الوحيد لتجيئوا بأنفسكم عنه وهو: هل كان «المسيو ومدام همبير» حسنى النية عندما قدما الشكوى ضد قطاوى بالربا الفاحش وهل له الحق فى مقاضاتها بتهمة البلاغ الكاذب؟

عندما ظهرت فى الصحف الأنباء الأولى لهذه القضية - فلقد أشارت إليها الصحف إشارة أهل العلم قبل أن تصل إلينا عريضة افتتاحها! - ظن رجال حسنو النية أن ثمة أضحوكة يراد

بها الدعاية باختراع أكذوبة خطيرة.. فلقد كان عملا جهنميا ومع ذلك كان صحيحا.
بل تساءل صحبه وحاشيته المقربون: هل أصابته لوثة!!

فإن هذا الرجل لا يطمح إلا إلى شيء واحد. هو الظلام، هو الصمت، اللالزمان له ليجمع الملايين ... وأخيرا فإني أشكر لزميلي ما في مرافعة من صراحة أفهمتني أن هذه القضية لم ترفع إلا فزعاً من المحلفين، ذلك بأنهم يخشون البصيرة النافذة لمحلفي السين. (باريس). يخافون أن نذهب إلى محكمة الجنايات فنظهر كيف ذابت رءوس الأموال الفرنسية عند هذا البنكير المصرى، فلا يعالىء المحلفون ذلك المرابى الأشهر، ويريدون أن ينفخوا «مدمام هببير» بالهواء ليجيروها على الإقضاء، فى القضية الحالية، حيث قلدت بالصمت فى التحقيق، نفس قاضى التحقيق، لكنه شرك واسع الخروق، لن نقع فيه - فلن تقول اليوم «مدمام هببير» ما لم ترض قبل أن تقول - وسنقوله للقضاة الطبيعيين للقضية، محلفى محكمة «جنايات السين». ولنتقصر المرافعة الآن على القضية الحالية:

فى ٢٩ مايو سنة ١٩٠٢ صدر أمر الحفظ فى الشكوى المقدمة ضد قطاوى قبل أن تشكلى بأيام الوزارة التى أصبح عضوا فيها المسيو.. «فلان». وكان يوم ذلك محامياً عن قطاوى. وإليكم نص قرار الحفظ:

حيث إن شهر إفلاس «فردريك هببير» بحكم من المحكمة التجارية يطبع المعاملات بينه وبين قطاوى بالطابع التجارى.

«وحيث إن التهمة فضلا عن ذلك ليست ثابتة ثبوتاً كافياً».

والحيثية الأخرى حيثية دارجة مبتذلة، لم تكتب بخط القاضى ولكنها مطبوعة.

قلت من قبل إن أمر الحفظ لم يكن عملاً موفقاً. فهل احتوى الدليل على براءة قطاوى؟ كلا على الإطلاق!

أو هل تضمن أن التهمة غير صحيحة؟ كلا. كلا..

إنما نجا المسيو قطاوى لأن المسيو «هببير» كان تاجراً..!

ولو كان موكلأى يريدان تأخيراً للقضاء فى هذه القضية لقالا: إن «مدمام هببير» والآنسة «دورنياك» - أختها - غير تاجرتين فلا حجة عليها لأمر الحفظ، ويومئذ كانت المعارضة فى الأمر كافية للتأخير.. وكان يكفى أن نطلب التأجيل..

ولو صنعنا ذلك لهُز الخصم عطفية جديلاً، لأنه لا يريد من هذه الاجراءات. إلا أن يتراجع «المسيو ومدمام هببير».

لكنها جاءا يطلبان أن تحاكما.

وأيا كان السلطان الذى يمكن أن يستغله المحامى السابق الأستاذ «فلان» فنحن ندرك أننا نترافع أمام قضاة نزهاء لن يستجيبوا لغير داعى العدالة.
لقد قرأت من قبل أمر الحفظ، ويبدو لى أنه قد أسىء تحريره وأن الحيشيتين اللتين قام عليهما يجوز تغييرهما بالآتى:

«من حيث إن محامى قطاوى السابق على وشك أن يتولى الوزارة»
«ومن حيث إن من الضرورى إصدار أمر حفظ من أجله..»
وإذا كان هذا قولاً غير قانونى؛ فإنه يكاد يكون القول الحقيقى.
وعندما ذاع نباء القبض على مسيو همبير وزوجته أديرت كتوس الشمبانيا فى وزارة.. وأظنها أديرت فى دار المسيو.. صهر قطاوى أو فى دار قطاوى نفسه..
فلندرس الموقف بالنسبة لقطاوى و«المسيو همبير» وزوجته دون تعرض لتحقيق يفيض بوجوه من البطلان لا تقبل التصحيح، سنتقدم بها فى الوقت المناسب.

ليس من الضرورى أن نتناحر كما صنع زميلى عن قطاوى فى همة وفصاحة ليستا فى مقدورى.. فهو لم يرحم أحدًا فى مرافعته، حتى المسيو «جوستاف همبير».. وأنا أقف عند هذا الاسم، فلقد زارتنى سيدة فى الراجمة والسبعين. عظيمة النشاط، عظيمة الأسى، هى أرملة وزير العدل السابق فأفعمت قلبى بهجتًا.

لقد احتجت بكل قواها، مستمسكة بثقتها المطلقة فى شرف زوجها ولا أستطيع مع هذا إلا أن أعلن الدهشة لما ورد من أقوال على لسان زميلى عن الخصم.
وكما لم يرحم الموتى، لم يرحم الزملاء.. ولو عن لى أن أستعمل فى هذه المذبحة نفس الأسلحة؛ فما كان أهون الأمر، لكن المحامى لا يملك الكلام ضد المحامين الآخرين. فلن تسمعوا منى أسياً لزميل.



إذا بحثنا تفاصيل العمليات الأولى بين قطاوى و«مدام همبير» برز لنا فى بداية العمليات دليل الربا.

لقد أوضح لكم الأستاذ «روسو» نفسه بين تأثيرنا العميق، أن أولى العمليات كانت عن بيع «عقد الإمبراطورة القديم» ولا أعرف كيف تنهى العقد فى سنة ١٨٧٧ إلى عائلة قطاوى!
لم يرق مدام قطاوى أن تحمل هذا العقد فتخلصت منه، وبينما يقدر موكلى أن ثمنه نحو ١٥ ألفاً من الفرنكات إذا بقطاوى يبيعهم إياه بمائة وعشرين ألفاً.

ها هو ذا البنكير الذى لاترقى إليه الريب، كالمرابى التقليدى، يبدأ بأن يبيع لأبناء العائلات قاسيح من القش.. «يبيع لمدام هبير» عقدًا بثمانية أضعاف ثمنه.
هذه الواقعة البسيطة تمكنتنا من الحكم على استهلاك هذه العمليات.. ثم تابعت العمليات.

وفى ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٠١ أى بعد ١٤ عاما قُدمت الشكوى بالربا الفاحش. وفتح التحقيق مع قطاوى فأبدى بحاميه استنكاره بقوله: «إن العدالة الفرنسية تجتو تحت أقدام «مسيو ومدام هبير» وإن اتخاذ الإجراءات ضد هذا الرجل الشريف (قطاوى!) يتجافى مع القصد والنصفه.. وكان يجب إجراء تحقيقات أولية (تحريرات) قبل أن يشرع قاضى التحقيق فى إجراءاته!

إننى أفهم هذه الحمرات. فلو أُجريت هذه التحريات قبل أن يشرع قاضى التحقيق فى عمله، لأتيحت لقطاوى فترة كافية لإخفاء حساباته واتخاذ احتياطاته!

لقد جرت العدالة مسرعة، مرة! فقيم التأذى من ذلك الفضل النادر الحدوث! سوف أغفل ما قيل ضد النائب العمومى والأفوكاتو العمومى اللذين يعرف لهما وزير العدل قدرهما من السمو والحصانة، وإذا كان الزميل الجليل قد أحس بحاجة إلى أن يدافع عن قطاوى وعن صديقه الشخصى المسيو «فلان».. فإنى لن أترافع إلا عن موكلى.
افتتح التحقيق قاضى التحقيق، وسأحدثكم عما أسماه «الرحلة إلى مصر» وبعبارة أخرى «تهريب دفاتر الحسابات إلى الأسكندرية».

علم البنكير أن الشكوى تقدمت ضده. ودعى للتحقيق. وتحدث معه قاضى التحقيق كما يأتي «لست أريد أن اتخذ ضدك إجراءات قاسية، وأنت صاحب مصرف يعكر التفتيش صفو عملك، فعذنى بأن تقدم دفاترك».

فافترض الفرص، وأعطى كلمة الشرف، قائلاً إنه سيقدم إلى الخبر المعين فى مساء ٢٨ من سبتمبر دفاتر حساباته ابتداء من سنة ١٨٨٧. لكن كلمة الشرف ليست كلمة شرف إذا صدرت من الرجل الذى يخاضم اليوم مدام هبير.. وسترون كيف أوفى بعهده.

أحس «رومان دورنيك» أخو مدام هبير والآنسة دورنيك» أن قطاوى، قد يفكر فى إخفاء أوراقه، فراقبه فى داره، فوقع بصره يوماً على عربه «المساجرى مارتيم» أمام منزل قطاوى تنقل إليها ستة صناديق ضخمة، وعلم من السائق أنها تحتوى دفاتر حسابات..! من محل قطاوى فلم يضع لحظة، وقصد مع «مدام هبير» إلى قاضى التحقيق فى أول أكتوبر سنة ١٩٠١، يبلغانه «أن جميع حسابات قطاوى ستهرب إلى مصر ويحسن اتخاذ الاحتياطات».

قال القاضي «لا يمكن أن يرتكب قطاوى هذه الحماقة التى تخسره كل شىء ولقد اعطاني كلمة الشرف!

لكن دورنياك، العليم بكلمات الشرف عند أصحاب المصارف، قال له لاقيمة لهذه الكلمة. قال القاضي: فلنتخذ الاحتياطات.

وفى أول أكتوبر انتدب المسيو «روى» مأمور الضبطية القضائية للتفتيش، فاسمعوا إذن لتقررروا حسن نية قطاوى فسأقدمه لكم متلبسا بجريرة عدم الصدق. ولتقرأ محضر المسيو «روى» فى مكتب شركة المساجرى بيدان الجمهورية:

قابلنا مدير المساجرى مريتيم ورئيس قسم التعبئة وانطلقا معنا إلى حيث أظهرانا على الصناديق الستة التى هى موضوع الشكوى.. فوجدناها.. تحمل أرقاما مسلسلة من ١ - ٦.. فتحنا الثالث منها فوجدنا فيه دفاتر حسابات قطاوى فضبطناها.

وسألنا رئيس التعبئة عن صاحب هذه الرسالة فقرر لنا، والأوراق بيده، أن المرسل هو «إخوان سوارس بمصر» بشارع لافايت رقم ١٤ وأن الميناء المرسله إليها هى «اسكندرية». وقدم إلينا ورقة العربة المرافقة، تتضمن بياناً عن محتويات الطرود «أوراق عمليات تجارية» وزنها ٢١١ كيلو جرام.

ولما قدم هذه الورقة قرر أنه لا ريب لديه فى أن مصدر الرسالة، ليس محل سوارس، وإن كانت الرسالة جاءت منه! لأن المسيو قطاوى قد تحدث أمس تليفونياً لأخذ الطرود، حالا، وتوصيلها، حالا، بأقصى سرعة.. ولقد كانت مرحلة، لو أمكن تحقيق تلك الرغبة عندما تحدث قطاوى كانت راحلة غداً، صباحا ولقد سألنا رئيس التعبئة عن المحادثة التليفونية التى جاءت من محل قطاوى أو أنه نفسه هو المتحدث، فأجاب غير متردد، وهو يؤكد، أن المسيو قطاوى معروف لديه وأنه تكلم بنفسه.

هذه الدفاتر إذن مصدره تحت اسم مزور. لأن أصحاب بنك قطاوى ثلاثة: إيلي، ويوسف، وموسى. الأنبياء الثلاثة! لكن التصدير كان باسم سوارس، لحساب سوارس، إلى «الأسكندرية».

وإذن أستطيع أن أقول لقطاوى: لقد أعطيت كلمة الشرف باعتبارك رجلا مرابياً، لا رجلا شريفاً، تقدم أوراقك للخير، لكنك كنت تبيت الغدر فى نفس اللحظة، وبعد أن أقسمت للقاضى ألا تخفى دفترا من دفاترك، حاولت تلك المحاولات الجارمة، لتحول دون تحقيق العدالة فى مستندات تحمل أدلة جريمتك.

إنك أنت الذى أمرت بالتصدير، إنك أنت الذى تحدثت بالتليفون، فى الوقت الذى كان ينتظر فيه قاضى التحقيق وفاءك بوعدك.

لكن هذا ليس كل شيء فلقد ذهب المسيو روى إلى المسيو قطاوى ليتكلم معه شخصياً. وإذا بهذا الدليل الذى قدمته من قبل، يؤكد ويؤكد، بدليل أقوى وأقطع.

فمن المتهم اليوم إن لم يكن إياك يا قطاوى!

انتقل «روى» فى الغداة إلى مكاتب قطاوى وكان يجهل عملية الضبط التى حدثت من قبل فى «المساجرى مريتهم» فحاول أن ينكر لكنه لم يلبث أن تدهور.

وستتكلم عن ذلك كلمة فى محكمة الجنايات فلينتظر..

أثبت المسيو «روى» فى محضره ماأتى،

«انتقلنا إلى بنك قطاوى وجردنا دفاتر الحسابات..

وسألناه عن الدفاتر الناقصة وبخاصة عن المدة السابقة على سنة ١٨٩٠ فأجابنا بأنها غير موجودة الآن.. (متسربة)..

وأنه سيتمكن من أن يضع الدفاتر بين يدي العدالة، إلا دفاتر الحسابات السابقة على سنة ١٨٩٠، فقد قرر لنا عنها وهو يعانى حيرة بادية «الظاهر أنها فى القاهرة - لأن حسابات فرع باريس ترسل إلى القاهرة كل عشرة أعوام» فسألناه متى كانت آخر رسالة من هذا النوع، فأجاب بعد قليل من التردد: من أيام - ولما أخبرناه بما تم من إجراءات أمس فى مكتب «المساجرى مريتهم»، قال حرفياً: «هذا صحيح» فسألناه: علام تحتوى هذه الصناديق، بدا له أن يعدل عن الإقرار الذى كان بسبيله، وقرر أنه يجهل محتوياتها، بل ويجهل - أيضاً - واقعة الرسالة التى نحن فى صدها.

وقرأ هذه الآقوال - وأمضاها معنا.

«روى»

إننى أدرك الاضطراب الذى يعانىه قطاوى.. فالكذب بغيض. لكن التعمية لامناص منها وهى على كل حال ديدنه.

ألم تلاحظوا عليه فى جلسة أمس أنه لم يُسأل سؤالاً، إلا حاول بقدرة خاصة، أن يراوغ كيلا يقول لا، ولايقول بلى!

ولكن أنى لك أن تزوغ! إنك أنت الذى تحدثت فى التليفون.. إنك أنت! وإن لك لنطقاً مصرياً للفرنسية لايدع مجالاً للشك، يعرفه رئيس قسم التعبئة شخصياً، إنك أنت الذى تحدثت فى التليفون فى اليوم السابق ومع ذلك تنكر فى الغداة أنك تعرف شيئاً عن مسألة التصدير! إن هذا ليقضى على قضيتك.

عندما يحاول مصر فى متهم بالربا الفاحش أن يخفى حساباته فهو لايصنع ذلك إلا واثقا بما تحويه من أدلة جريمته.

لقد أعجبت أسس بالهدوء المتعالي الذى خالط عبارات زميلى عندما قال « ليس لهذا أهمية، فسنقدم هذه الدفاتر للدفاع عن قطاوى. فلماذا إذن حاول قطاوى أن يقول إنه ليس الأمر بترحيلها، وإنما أصدر الأمر واحد من موظفى مصرفه!

ألا ما أعجبه مصرفاً مع صاحبه، وما أقل اطمئنان صاحبه عليه. ذلك المصرف الذى يستطيع المستخدمون المتواضعون فيه أن يرحلوا إلى الخارج كل حساباته، دون أن يعلم صاحبه شيئاً عما صنعوا!!

وسنسمع بعد لحظة بالعجب العجائب!.. حيث نرى مستخدماً بسيطاً فى المصرف يجرى، من تلقاء نفسه أيضاً، ليستتقذ صاحب المصرف فيعرض على مدام همبير إنقاذه من السجن لقاء أن يعطيها هو - المستخدم - مليون فرنك!..

فياله من مستخدم ذكى الفؤاد جور؟ ففى اللحظة التى يهاجم فيها صاحب المصرف ذلك الهجوم، نرى موظفين مخلصين عند رجال أمناء، بل أقول: رجالاً أمناء عند أرباب مصارف. ولننتقل الآن إلى حجة أخرى، إننا لم ننس أن مأمور الضبطية القضائية انتقل إلى قطاوى وأن هذا قال له: «إن من غير الملائم أن يلقى المرء مأمور الضبطية القضائية زائراً» وإن موظفاً فى بنك قطاوى قال للمأمور «هذه أول زيارة من هذا القبيل لمصرفنا»:

ألا فليصروا قليلاً! فلن تكون تلك الزيارة هى الأخيرة، إذا كانوا صنعوا مع آخرين مثل الذى صنعوا معنا.

ارتاع قطاوى. فاتفق مجلس عسكري، وتصدر لإدارة الجلسة واستنهاض الهمم الخائرة، رجل كان اتزانته، وذكاءه وهمته على قدر ماتتطلبه مخاطر الحالة، إنه زميلنا القديم، الذى لم تفارق ذاكرتنا مرافعاته، إنه فردريك ر... وهو من عنصر أجنبي، صاهر قطاوى فاتفق حلف عاتل بين مصر وبافاريا.. وبعد ضبط الدفاتر، وزيارة مأمور الضبطية أراد قطاوى أن يستسلم، فقال له ر.. «كلا يا عمى Papa يجب ألا نستسلم يا عمى Papa المقاومة واجبة يا عمى Papa.

ولا تنسوا أن زوج البنت أكبر سناً بكثير جداً، من والد الزوجة؟. فله ولمواهبه كل الاحترام.

ولقد وجد رجل يسدى المشورة بالتبصر، سمعتموه وأعجبتكم بقوة نفسه ومرورتها هو «فرنان كريميه» عضو مجلس النواب السابق وعضو مجلس الشيوخ الحالى، ونصح بزيارة «مدام همبير» فانتقل قطاوى إلى منزل تلك التى بلغت ضده بأنه ارتكب جريمة الربا.

لقد سبقت زيارته إياها زيارة مستخدمه، «المسيو بلانشارديه» وقطاوى يؤكد لنا أنه يجهد زيارة مستخدمة هذا، وأنه لم يزرها إلا من تلقاء نفسه، لكن ر.. أكثر صراحة، فلقد سئل فى وقت

غير الذى سئل فيه صهره، فلم يتطابقا.. وقرر أن «بلا نشارديه» زار دار «مدمام هبير» ليعرف من «رومان دورنيك» ما تبغى أخته.

اعترف قطاوى.. ولم يك له معدى عن الاعتراف - بأنه قصد إلى دار «مدمام هبير» ليتفاوض معها. فقيم كانت المفاوضات.. وإذا كنت تريد من المحكمة أن تقتنع بشركك فكيف تستطيع أن تسوغ لها أنك كنت ثمة تضع نفسك تحت رحمة السيدة التى اتهمتكم بالجرمة المخزية. فيالها من زيارة مثبتة للجرمة، ومخزية معاً!... لقد قبلت أن تدخل فى مفاوضات مع «مدمام هبير»... وأن تعطىها مليوناً!... أو أن تعيد لها أوراقا تجارية وقعتها بهذا القدر، حررت - سوريا - للغير، وهى لك!... وتوسلت إليها أن تسحب شكواها. ووضعت نفسك تحت رحمتها عندما أحسست فى تلك الليلة أنك ستبيت فى السجن.

وفى نفس اليوم، فى الخامسة، ذهبت مدمام هبير مع أخيها إلى قاضى التحقيق تقول: «لقد كان قطاوى عندى، وركع تحت قدمى لأسحب الشكوى ويدفع لى مليوناً... فماذا أصنع؟». وإنى أرجو حضرة القاضى أن يكذب أى كلمة غير صحيحة من هذا البيان... فأجابه القاضى:

«لا تقبل هذه العروض - ففى بضعة أيام ستناين - لا مليوناً واحد - لكن كل حقوقك، إنه أصبح فى قبضة العدالة، وليس لك الحق فى إجراء التسويات معه، وأدلى المحضر بدلوه فى الدلاء فقال «سبعين خبير يقرر لك كل ما تستحقينه».

تلك حوادث لا تنسى حدثت فى أول أكتوبر سنة ١٩٠٦... وهى تأذن لنا بتقدير قيمة شكوى قطاوى ضد «مدمام هبير» أنها بلغت فيه بلاغاً كاذباً.



تعين خبير، وتقدم تقرير، لكن زميلى عن قطاوى يقول «إن عمل الخبير لا قيمة له لأنه وإن كان رجلاً ذكياً أميناً إلا أنه كان «مسحوراً» «بمدمام هبير».

لقد نسى الزميل تلك الملاحظة الدقيقة التى صدر بها الخبير تقريره: وهى أنه جعل الأساس الوحيد لعمله حسابات قطاوى التى حاول إخفاءها عن العدالة... وإليك بعض ما جاء بهذا التقرير (وتلا بعضاً مما جاء فيه) ثم قال:

أتانى بحاجة إلى أن أذكركم بما أكدته لنا مدمام هبير من أنها فى سنة ١٨٨٨ دفعت إلى قطاوى خمسمائة ألف فرنك عمولة لاقتراض ٨٠٠ ألف!.

لقد قرأت تقرير الخبير وهو رجل مؤدب، مهذب، رفيع الخلال، لا يميل إلى العبارات

القاسية، فهو لا يقول عن قطاوى إنه مراب ولكنه يقول عنه: إنه «صاحب مصرف يضيف إلى عملياته إضافات».

والإضافات باللغة التى أعرفها هى الربا.

ولست وحدى أرى هذا الرأى ولكن رأى يشاطرنه قاضى التحقيق.

أيريد قطاوى بعد ذلك أن تقول عنه المحكمة إنه رجل شريف... يريد لهذا الرأس الذى تساوره هموم الملايين، وعمليات الاستغلال التى استنزفت الذهب من جيوب الفرنسيين، يريد له أن يكفل بهالة من الطهر والبراءة والفداء، كأنه من رموس الشهداء...!

أخذ الخصوم على مدام هبير أنها لم تتكلم أمام قاضى التحقيق!...

إن لدينا فى فرنسا فكرة غريبة عن الحرية تجعلنا نتأذى من استعمال المتهم أبسط الحقوق، حتى عدم الإجابة فى التحقيق!.. إن قاضى التحقيق مسلح بأخطر السلطات حتى ليصبح المتهم أعزل أمامه... مع حضور محاميه، ذلك الحضور النظرى، منذ قانون سنة ١٨٩٠، ومن واجبي أن أقول إن قاضى التحقيق قلد المتهمه محتمياً بسر المهنة «سرية التحقيق» فلم يتكلم القاضى أمام «مدام هبير» أكثر مما تكلمت «مدام هبير» أمام القاضى.

وكما جاء المثل من عل جاء من أسفل.

ففى ٢٧ مارس سنة ١٩٠٢ دعى قطاوى أمام قاضى التحقيق: الذى يستجوبه كمراب، فأجاب، وإليكم نص ذلك الجواب:

«قطاوى (مجبياً): إننى أحتفظ بالجواب... وسأطلب نسخة من الشكوى وتقرير الخبير وملحقاته».

هكذا - هكذا: لا كلمة اعتراض! ولا إشارة احتجاج! لقد كنت أنتظر منك أن أسمع صيحة الضمير الطاهر، المطمئن، فلم أسمع إلا الإجابة التاعسة طلب التأجيل.

بل إنك لتصطنع فى سبيل الدفاع عن نفسك أغرب الوسائل وأشدها بؤساً، فعندما تلقت النيابة طلب «المسيو ومدام هبير» للدعاء مدنيا اعتراض قطاوى بلسان محاميه الذى أضاف إلى مركز المحامى نفوذ صاحب لقب «وزير فى المستقبل» فقدم مذكرة يقول فيها:

«كان التحقيق سرىاً حتى سنة ١٨٩٧ ولم يبق سرىاً اليوم، بالنسبة للمتهم ومحاميه، أما المدعى المدنى فيجب أن يظل بعيداً عن الإجراءات».

وقدم دفءاً بعدم قبول التدخل من «مسيو ومدام هبير»، فهذا لا يستطيعان التدخل، ولا توكيل محام للحضور عنها فى التحقيق، ولا حق لها فى الاطلاع على الأوراق... وهكذا: بدلا

من أن تنشر النور وتلمس الحقيقة رحمت تستعين بمحاميك لفتح إجراءات هي لا شك دائرة عليك.

ونقول إنك قدمت شكوى ضد مسيو ومدام همبير بأنها «نصبا» عليك.. لكن شكواك لم تقدم إلا بعد التحقيق معك، فأنت تبحث عن مصلحتك وحماية ذاتك، وعندما شعرت أنك فقدت كل شيء، وأن أبواب السجن قد تفتحت على مصاريعها لاستقبالك، وأن الإجراءات الجنائية لا يحصى عنها. عندئذ فقط قدمت شكواك.

لقد كان فزعك من السجن السبب الوحيد لالتجائك للنائب العام! لم تكن شكواك احتجاج رجل شريف ولكنها كانت دفاع قلبٍ هلوع.

إنك لا تتردد دون أى مناورة، أتذكرون يا حضرات السادة شهادة حسن السير والسلوك التى طلبها فأعطيتها من «المسيو ومدام همبير» فى ٣٠ من أكتوبر ١٨٩٣؟.

إن جميع الذين ترافعوا فى قضايا الربا الفاحش يعرفون أن المرابين عند ارتكاب جرائمهم يطلبون من أبناء العائلات أو السيدات المرفقات الذين يستنزفونهم شهادات مماثلة.

ألا ما أجل أن نلتقى مرة أخرى بقطاوى أمام محكمة الجنايات!

- المسور.. انتظر إذن حتى نكون ثمة، فستنتهى بأن تهيج غيظي.

- هنرى روبير: حقيقة؟.. إني أكون قد نجحت. فلا هم لى غير ذلك. أجل أيها السادة، فلسوف أهنئ المسور. ولسوف أقول له «لقد كنت صريحاً فى قضية الأمس، وإن تلك الصراحة لم تكن غريبة لدينا. لأن لنا بك عهداً. وعندما اعتزلت المحاماة فى باريس لتقف خدماتك على تنمية ثرائك جزعت نفوسنا لاعتزالك».

لقد أكد لنا قطاوى فى بداية القضية أن هذه الشهادة لم تجيء عن طريقه. والرجل الشريف هو الذى يقول إنه يجهلها جهلاً تاماً.. أما ر. فقد نظر إليها بعين لم تخدعه، فقدم لنا الإيضاح الطريف وهو أن الصورة المرافقة للدوسيه محررة بخط أحد عماله القداماء.



والآن لم يبق لدى إلا كلمة واحدة لأنتهى.

يريد قطاوى منكم أن تقولوا إنه كان مجنناً على سمعته فى جريمة بلاغ كاذب فمن الرجل؟

أهو الفنان ذو العبقرية الخالقة، الرسام ذو البراعة الطائرة الصيت؟

أهو رجل من رجالات الأدب الذين يهزون بأثارهم أحاسيس الجماهير؟

أم خطيب عظيم يسحر الجموع ويدوى صوته فى المجمع؟.

كلا. إنه ليس إجماعاً للمال، منقياً عن الأعمال!!

بلى لقد صنعت ثراءك، وجمعت ملايينك! أفتريد معها الشرف وتريد الاحترام!!

ألا عز ما تبغى!

أيها السادة احتفظوا لآخرين غير قطاوى بشهادات التكريم والشرف. وستثبتون ببراءة

«مسيو ومدام هببير» أنكم تصدرون أحكاماً ولا تؤدون خدمات.

في محكمة الجنايات

٣ - قضية بوبوروش أمام محكمة جنایات السین

حضرات القضاة:

حضرات المحلفين:

ساعتان طويلتان، واتهامان، أحدهما لا سبيل إلى تسكينه من المدعى المدنى وثانيهما أكثر اعتدالا، من الاتهام.

ومع ذلك ولأنى أعرف القلب الكبير والنفس العادلة، عند الأفوكاتو العمومى، فقد ظلمت أنتظر حتى اللحظة الأخيرة، أن يتنازل الرجل القضائى العظيم عن اتهام الرجل الذى أشرف بالدفاع عنه «بوبوروش»، لكن ممثل الهيئة الاجتماعية، على نقيض ما توقعت قد طلب إليكم الحكم بإعدامه، إذ يراه مجرماً، فى حين أراه بريئاً... بل فريسة؛ وإليكم البيان.

ولكن هل أنتم بحاجة إلى ذلك البيان بعد المناقشات التى أدارها بين أيديكم حضرة الرئيس بجلال واستقلال ومقدرة جديرة بالاحترام! إنى لم أتوقع غير ذلك ممن بلغ مؤلفه (الجرىمة الأدبية) من النجاح ما تعرفونه، حتى ليبرز فى مكتبة كل قانونى جدير بهذا الوصف. لقد تتبعتم هذه الجلسات باهتمام عظيم، وأنتم خاصة يا حضرة «المحلف الرابع» لقد وجهت من الأسئلة الدقيقة المنتجة ما طمأننى على متاعب الرجل الذى أدافع عنه.. عشرون دقيقة لا أكثر ولا أقل. ستأذن لى بإثبات براءة «بوبوروش» فهل أنتم بحاجة إلى سرد الوقائع؟.

قضى «بوبوروش» كأشرف رجل فى الدنيا، ليلة السبت ٢٦ يناير، فى المقهى مع أصدقائه الذين لا يفارقهم. والذين سمعتموهم فى هذه الجلسات شربوا، ولعبوا، وكان مزاجه فى أحسن حالاته. وهو يترنم بأغنيته التى يبدو أنه لا يتذكر سواها «للسلام تعمل مطرقتى».

وقصد إلى وكر غرامه حيث تنتظره السيدة التى شغفته حبا والتي أعتبرها اليوم مثل الفضيلة المفترى عليها، السيدة «أديل»، على رغم ما فوجئت به من اللوم من فم رجل قضائى

نافذ البصيرة - من أهل باريس! - كالأفوكاتو العمومي، لأنها تلبس جوارب حريرية، وتطلى أظافرها كل صباح.

إن على أن أنبهكم يا حضرات المحلفين إلى الشهادة المخلصة المؤثرة التي أداها في هذه القاعة خير أصدقاء موكل، المسيو «يوتاس» لقد شهد أن «بوبروش» قرر له «إن لديّ صديقه كلها رقة، مديرة، أحبها، ولن يخالجنى الشك في إخلاصها لحظة» وأضاف: «إنني سعيد كل السعادة التي يستطيع رجل أن يظفر بها».

أنشودة بديعة، بليغة، من التقدير لكمال السيدة التي منحتها النعيم.

بل إن من حقى، وواجبى، أن أعلن في هذه القاعة أن هذا الإيمان بالحب كان يبقى خالداً، لو لم يتقدم في الظلام، بعد إغلاق المقهى، «رجل يلطخ هذا النعيم وينزع من هذا الإيمان بهاء» فيدفع إلى ارتكاب الجريمة.

هذا الرجل، المجنى عليه عندك يا حضرة الأفوكاتو العمومي. هو المجرم الحقيقي عندي، الذى لو قدرت له الحياة لكان عليه أن يؤدي الحساب للعدالة عما سكب من الأسى في قلب الرجل الذى يذرف الآن الدموع.

شهد أمامكم الرجل العظيم «جورج كورتين»، الذى ستضمه إلى أعضائها قريباً أكاديمي «جونكور» ولم يحضر إلا ليشهد بما لبوبروش من فضل، ذكر لكم عن هذه الشخصية الغريبة للرجل العجوز المتوفى، مسيو سوب، إنه كان مستخدماً متقاعدًا لا عمل له، يعانى آلام المعدة.

أراد الحظ ألا يكون في مخدعه الآن حيث كان مقدورًا عليه أن يبقى ليضع صحته من زمان، فذلك أول طيش كبير تورط فيه! إنه لا يعرف بوبروش»، ومع ذلك ينقض عليه من غير مقدمات، بين اثنين من «خلصائه» ليقول له الكلام الذى تذكرونه..

إنكم لتذكرونها هذه الكلمات، وهى فى نظرى تشتمل على تحريض على القتل: رجل سعيد، لعله السعيد وحده، فى الوجود، يملأ كيانه حب غامر، يؤمن بإخلاص الشخصية الممتازة التى تخيرها بين نساء العالم، يجيء إليه رجل ليقول له فى وحشية لا تغتفر: يا سيدى، إننى لا أعرفك لكنك مخدوع، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك، كأنما اعتورته شياطين الشر، فإن المتهم لا يصدقه فيندفع الرجل إلى التحديد، ويزيد: فى كل مرة طيلة سنوات ثمان لا تكاد تترك باب دارك، التى تنفق عليها من مالك، والتى تحتوى أعز آمالك، حتى يخفى فيها رجل.

لكن «بوبروش» المسكين يستمر فى عدم تصديقه فيتمادى الرجل إلى التهكم ويقول: هذا يقطع عليك سيجارك!؟

وبدأ «بوبروش» يسائل نفسه: «أنخوننى! أهكذا لم يعد لديها إحساس!».

ويستطرد الرجل فيجيبه: «إنها إذا لم يكن لديها عاطفه بالنسبة له فإن لديها الإحساس بالنسبة لسواه» ويستطرد، ويستطرد، حتى ليستشهد الجدران التي لا تحفظ أسرار الهوى المختنق.

إن من يستمع إلى هذا الطعن الشنيع فلا يخفق الطاعن، لا يكون إلا قديسًا! وأينا لا يففر له ذلك؟.

غلق المقهى أبوابه ومشى «بوبروش» يترنح كأنما مسه خمار الكحول، وما هي إلا غيبوبة الأسى والكدر، في طريقه إلى وكر غرامه، فريسة لأعنف الأحاسيس.. ها هو ذا على الطوار المقابل لداره. ها هو ذا: يتراءى له بين شقى النافذة ظلان..! عمل من أعمال الخيال المهتاج، قد حركة الإفضاء الشنيع الكاذب الذى أدلى به المسيو «سوب»! فارتقى درج السلم، فصار في الشرفة. يعالن محبوبته بشكوكه التي قتلت كرامتها وقتلت حبهامعًا، فأعلنت له براءتها، وأخذ ييحث في الدار عن الرجل الذى يظن أنه رآه.. فمدت يدها إليه بمصباح مضئ لينير كرامتها وظلام الدار.. لكن النسائم أطفأتها فعاد الظلام.. إلا شعاعًا من النور ينساب من باب الدولاب الداخلى فى الجدران.. ففتحه.. وإذا فيه المسيو «أندريه». الفتى الذى سمعتموه فى هذه القاعة يدلى بشهادته، فى اتزان واعتدال، ويترك فى نفس المحكمة الأثر الذى تركه فى نفسى.. فماذا كان يصنع فى ذلك الدولاب؟.

تلك هى المسألة التى تتساءل عنها يا حضرة الأفوكاتو العمومى.. ولقد تساءل من قبلك المتهم.

وهنا أرجو أن تأذنوا لى باحترام رغبة بوبروش، فى هذا الشأن وهى ألا أجيب.. لقد فهِمتمونى من ثنايا الكلام.. إن هناك أسرارًا للعائلات ليس لأحد حق فى اقتحامها، بل إن العدالة نفسها لتنحى أمامها، فلا تسأل عنها.

أجل: سر عائلى فليصلح بالك «يابوبروش». إني لن أهتك ستر هذا السر الذى تغار على حفظه من أجل شرفك، ومن أجل شرف السيدة «أديل» والمسيو «أندريه» فهى متضامنان معك فى الاحتفاظ به، وفى إيداعه.

سر عائلى يسوغ وجود «المسيو أندريه» فى ذلك المكان الشاذ لو أبيع لى أن أذيعه لأعجبتم من فوركم بالرجل الذى أدافع عنه، إعجابًا يعدله ازدراؤكم للمجرم الوحيد فى هذه القضية مسيو «سوب».

وسيدرك حضرات المحلفين معى ثورة نفسك «يا بوبروش» عندما تنهى إليك وقع أقدام الرجل العائد فى اطمئنان إلى مسكنه، بعد أن حطم سعادتك بغير داع، عند ذلك كانت وثبة

«بوبروش» نحو الباب، والكلمات العنيفة العادلة التي قذف بها في وجه القاذف. فحاول الرجل أن يفتح فمه. ترى أيريد أن يلوك لسانه وقاحة أخرى! إن من حق «بوبروش» أن يخاف، ومن واجب «سوب» أن يتلع لسانه.. لكنه يهم بالكلام وإن سبه أخرى ستهبط من بين شفتيه، ويجب ألا تهبط.. فليمنع «بوبروش» الشر وهو في سبيل تكوينه، فيمسك بيديه عنق الرجل..

وفي الغداة، أسلم الرجل العجوز روحه.. ومن أجل ذلك جرى ببوبروش كالمجرمين إلى محكمة الجنايات.



قرر «الدكتور بول» في شهادته العلمية الجديرة بالإعجاب أنه إذا كان «سوب» مات نتيجة اختناق، فلا شيء يعين على التأكيد بأن صلة السببية قائمة بين الوفاة والضغط على العنق الذي وقع، وتلك واقعة قد سجلت لحسابنا في الجلسة.



إني أضيف أن هذا الحادث المؤلم - أيًا كان - يبدو لي كأنه قصاص جاءت به السماء، للتهوين على الرجل الذي أدافع عنه، والذي يطلب العدالة منكم. إنني أرجوكم أن تبرثوا «بوبروش» حتى إذا أوتيتم إلى مساكنكم في هذا المساء استطعتم وأنتم تتناولون العشاء - أن تلقوا على زوجاتكم وبناتكم نظرات تراءى فيها راحة الضمير. وفي هذه الأثناء، في هذه الغرفة الصغيرة التي تعرفونها، حيث يبقى مقفلاً ذلك الدولاب، الذي أثار كل الصعاب سيجلس إلى المائدة، «بوبروش» مبرأ من «مخلفى السين» محاطاً بشريكه وصديقه اللذين أسىء إليهما ظلماً، واللذين أقاما على الإخلاص له في بلاتنه.



«وبرى» «بوبروش» وقضى على المدعى المدنى بالمصاريف وصافح «بوبروش» بتأثر «أندريه».

الفهارس

١ - فهرست الأعلام

- (أ)
- أحمد شفيق باشا (الطبيب) ١٢٩
 أحمد عمار (الطبيب) ١٢٩
 أحمد مرسي بدر ٢٠٠
 أحمد نجيب الهلالى ١٢٠ - ١٩٢ - ٢٢٧
 أحمد حسين ٢١٩
 أحمد وفتي ٦٥
 إسماعيل أباطة ٤٥ - ١٦٥ - ١٧٣
 إسماعيل صدقى ١١٥
 إسماعيل صالح ٢٨
 أكرم بن صفي ١٧٢
 إميل دوس ٩٨
 أمين أنيس باشا ١١٣
 أمين الرافعى ١٧٣
 أمين هويدى ٢٣٩ - ٢٤٣
 أنجى أفلاطون ٢٠٣
 أنور السادات (الرئيس) ٢٤٠
 أوديت سيمون ٣٠٠ - ٣٠٦
- (ب)
- بابكر عوض الله ٢٣٩
 يارتو ٣١٥
 برييه ٢٩ - ٤٧
 بطرس غالى ٣١ - ٤٢
 بوانكاريه ١٠٥
 بوند ٣٠ - ٣١
 بيكون ٣١٦
- (ت)
- توفيق (الخدوي) ١٨
 توفيق الشاوى ١٧٦
 توفيق رفعت باشا ٩٨
- أنى داير ٢٦٠ - ٢٦٤
 الأسكندر ١٦٧
 إبراهيم راتب ٦٠٠
 إبراهيم شكرى ٢١٩
 إبراهيم عبد الهادى ١٤٢ - ١٤٧
 إبراهيم مدكور ١٩٤
 إبراهيم أفندى ٩٢
 أحمد أبو الفتوح ١٧٤
 أحمد إبراهيم ١٧٤
 أحمد أمين (المستشار) ١١٤ - ١٧٤
 أحمد أمين (صاحب ضحى الإسلام) ١٧٤
 أحمد حسنى ١١٥
 أحمد حشمت ٢٦
 أحمد حشمت أبوستيت ١٨٨
 أحمد حلمى ٣٥
 أحمد حروش ٢٤٠
 أحمد زكى باشا ٥٩ - ٢٤٠
 أحمد زيد ١٩٠
 أحمد عبود باشا ١٤٠
 أحمد زكى باشا ٥٩ - ٢٤٠
 أحمد عبده خير الدين ١٧٤
 أحمد عصمت ١٢٦ - ١٢٧ - ٢١٠
 أحمد فوزى ٢٤٠
 أحمد سيف الدين ٢٧ . ٧٠
 أحمد شفيق باشا (الطبيب) ١٢٩
 أحمد الصاوى محمد ٥٩
 أحمد عراقى ١٨٢
 أحمد مرتضى المراغى ٢٢٨ - ٢٣٠
 أحمد ماهر ٥٣

توفيق نسيم ١٧٥

(ث)

ثروت (عبدالمخالق) ٢٦ - ٤٧ - ٥٨
 ثروت أباطة ١٣١
 ثروت عكاشة ٢٤٣
 التعالي (الزعيم التونسي) ٦٦

(ج)

جامبنا ٤٢ - ٨١
 الجامع الأزهر ١٨٢
 جامعة الإسكندرية ١٨٤
 جامعة القاهرة ١٨٤
 جامعة عين شمس ١٨٤
 جامعة الدول العربية ٢٤٥
 جمال الدين الأفغاني ١٣
 جمال عبد الناصر (الرئيس) ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤
 ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٤١
 الجمعية الخيرية الإسلامية ٢٦
 جيني ١٩١

(ح)

حافظ رمضان باشا ١٩٢
 حافظ إبراهيم ٢٣ - ٥٩ - ١٧٢
 حامد زكي ٢١٢
 حسن الجداوي ٨٨ - ٣٠٥
 حسن بغدادى ١٨٢
 حسن صبرى ٤٧
 حسن علام ٢٧٨
 حسن عاصم ٢٤
 حسن النحاس ٦٥
 حسن فريد ٧
 حسن المضيبي ٢٢٢
 حسين (السلطان) ٢٠ - ٢١ - ٢٦
 حسين سرى ١٣٩...

حسين رشدى ٢٦
 حسين فخرى ٢٠١
 الحسينى - أحمد بك الحسينى ٢٤
 حنفى ناصيف ١٧٢
 حنفى محمود باشا ٦٦ - ٧٦
 حلمى بهجت بدوى ١١٤ - ١٩٠
 حمزة فتح الله ١٧٢

(خ)

الخازندار ٢٤
 الخديوى (إسماعيل) ٩٣ - ٢٧٣
 الخديوى (عباس) ٢٧ . ٢٩

(د)

داجوسو ٤٠ - ١٠٢
 دار المعارف ١٦٥ - ١٨٦
 دراز ٦٣
 دلبسيس ٣١٢
 دنشواى ٣١ - ٤٤
 دتلوب ١٩٠

(ر)

رياض باشا ١٨ - ١٩

(ز)

زكى بدوى ١٣٩
 زكى عبد المتعال ٢١٢
 زكى المهندس ١٣١
 زكى عربى ٨٤ - ٢١٧
 الزنكلونى (الشيخ) ٦٣

(س)

سامى مازن (محمد سامى مازن) ١٦٦ - ١٩
 ٢١٠ - ٢٢٧

سامى شرف ٢٣٩

سانتيز ٧٩

(ع)

عادل يونس ٢٣٩

عاطف بركات ١٧٤

عبد الحليم الجندى ١٢٤

عبد الحميد (السلطان) ٩٣

عبد الحميد أبو هيف ١٨٦

عبد الحميد الوشاحى ١٢٤

عبد الحميد بدوى ٢٨ - ١٦١ - ١٩٧

عبد الحميد عبدالحق ٨٢

عبد المجيد عبدالحق ٢٢٥

عبد الرحيم غنيم ١٢٤ - ٢٢٢

عبد الرحمن الرافعى ١٤٤ - ١٩٢ - ١٩٤

عبد الرحمن سيد أحمد ٧ - ٨٦

عبد الخالق حصونة ٢٢٩

عبد السلام عبد الغفار ٨٢

عبد الفتاح حسن ٢٢٨

عبد الفتاح السيد ١٦٨

عبد العزيز آل سعود (الملك) ١٨٩

عبد العزيز البشرى ٧٩

عبد العزيز جاويش ٣٣

عبد العزيز فهمى ٥ - ٧ - ٢٨ - ١١٥

عبد العزيز فهميم ٧٨

عبد العزيز محمد ١١٣ - ١١٥ - ١٢٤ - ١٣١ - ٢١٥

عبد العظيم رمضان ٢٤٠

عبد المجيد عبد الحق ٢٢٥

عبد افة للموم ٥٨

عبد المنعم رياض ٢١٠

عبد الوهاب خلاف ١٧٤

عبد الهادى الجندى باشا ٨٦

عبد الوهاب عزام ١٧٤

عبد حسن الزيات ٦٧

عثمان حسين, عبد افة ١٨٩ - ٢٣٨

عثمان عبد الغفار ٦٧

عدلى يكن ١٦٦

سعد زغلول ٥ - ٧ - ١٦٩ - ١٧٣ - ١٧٧

سعيد حلمى (اللواء) ٢٢٥

سليمان حافظ ١١٥ - ١٦٨ - ٢٠١ - ٢٢٢

سليمان مرقص ١٩٠

سولانج موكلير ٩٧

سيد درويش ١٦٨ - ١٩٥

السيد على السيد ١٢١ - ٢٣٦ - ٢٣٨

سيد المرصفى ١٧٢

سيف افة يسرى ٢٠٢

(ش)

الشافعى (الإمام محمد بن إدريس) ٢٤٦ - ٢٤٨

شعراوى جمعة ٢٣٩

شفيق شحاته ١٩٠

شفيق منصور (محمد) ٥٣... ١٧٣

شوقى (أحمد) ٢٣٤

شارل شالوم ١٢٩

شوقو لاجارد ٣٩

شيشرون ٧١

(ص)

صلاح سالم ٢٤٠

صبرى أبو علم (محمد) ٢٣٦

(ض)

ضياء الدين شيت خطاب ١٨٨

(ط)

طاهر محمد ٢١٠

طاهر نور ٥٨

طلعت حرب ٢٤٧

١ كين بويد ٦٥
كليبر ٥٨

(ل)

لا بورت (قضية) ٣٢١
لابورى ١٠٢ - ٣٠٧
لاشو ٨١ - ٩١
لامبير ١٧٥ - ١٧٩
لامرتين ٥٥ - ١٣٤
اللقاقى ٢٣
لينان' دى بلفون ١٨٩
لطفى السيد - أحمد ٢٦
لطيف سليم باشا ٥٩
لوجريل ٢٢
اللواء الحديد ١٢٦
لى ستاك (حاكم السودان) ٥٣

(م)

مجلس الشيوخ ٨٨
مجلة مجلس الدولة ٢١٦
محمود يونس ٢٤٣
محمد زكى على ٢١٦
محمد زكى عبد المتعال (انظر زكى عبد المتعال)
محمد زغلول باشا ٩٨
محمد سامى مازن (انظر سامى مازن)
محمد محمود جلال ٩٢
محمد صبرى أبو علم (انظر صبرى أبو علم)
محمد عفت ٢١٠
منصور باشا فهمى ٦٧
مصطفى الشوربجى ١٧٣ - ٢٠٢
موسى عليه السلام ٧٦
مى زيادة ١١٥
محمد عبده ١٣ - ١٧
محمد عبد العزيز ملوخية ٢٣٧
محمد فريد ٧
محمد فريد أبو حديد ١٩٥

عزیز المصرى (الفريق) ٢١٠

عزیز خانكى ٨٢

عزیز ميرهم ٦١

عزیز أباطة (محمد) ١٩٠

على أبوب ٩٧

على شعراوى باشا ٥٢

على بدوى ١٧٥

على الجلوانى ٦٢

على المشخانى ٢١٩

على فخرى ٢٦

على عبد الرازق باشا (الشيخ) ٦٤

على ماهر ٢٣ - ٥٢

على يوسف ٤٦

عمر حافظ شريف ٢١٧

(ف)

فاروق (الملك) ٢٧

فاضل (الأمير) ١٩

فان دن بوش ٢٣١

فتحي رضوان ١١٩ - ٢١٠ - ٢٣٠

فتحي زغلول ٢٦ - ٣١

فتح الله بركات ٥٥

فتحية عبد الرزاق أحمد السنهورى ١٦٤

فؤاد (الملك) ٩٣

(ق)

قاسم أمين ٧ - ١٧٢

قطاوى ٣٢٢

(ك)

كامل شهاب الدين ٩٨

كيلنج ٦١

كشنر (لورد) ٤٦

كرومر (لورد) ٤٥ - ٤٧

كرمان خالص ٦٦

- محمد فريد زعلوك ٢٢٩
 محمد كامل مرسى ١١٥ - ١٦١
 محمد كامل النحاس ٢٠٢
 محمد فؤاد سراج الدين ٢٢٥ - ٢٢٨
 محمد محمد سلامة ٢٤٠
 محمد عبد السلام ١٦٨
 محمد العشماوى ١٨٦
 محمد أحمد غنيم ١٢٤
 محمد علي (الأمير ولي العهد) ٦٣ - ٦٤
 محمد صدقى سليمان ٢٤٤
 محمد محمود باشا ٢٧
 محمد عزمى ١٩٠
 محمد عزيز أباطة ١١٠
 محمد محمد الوكيل ٢١٦
 محمد مصطفى المراغى ٢٠٩
 محمد مروان بك ٥٣
 محمد نجيب (اللواء - رئيس الجمهورية) ٢٣٢ -
 ٢٣٤ - ٢٣٨
 محمد شكرى كيرشاه ١١٨ - ٢١٦
 محمد نجيب صدقى ١٩٠
 مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ١٦٦
 مدرسة محرم بك - ١٧٠ - ١٧١
 مدرسة الحقوق ١٧٣
 محمود الأترجى باشا ٦١
 محمود عبد النبى بك ٦١
 محمود زكى ١٣٩
 محمود محمد محمود ١٦١ - ١٩٧
 محمود ثلثوت ٦٣ - ٦٤ - ١٩٤
 محمود سامى البارودى باشا ١٩
 محمود المرجوشى ٩٨
 محمود فوزى ٢٣٢
 محمود غالب باشا ٨٦
 محمود سليمان غنام ٢٢٨
 محمود بسيونى ٨٣
 مراد سيد أحمد باشا ١٨٩
 مرجريت فهمى ٢٨٥

(ن)

- نابليون ٧١ - ٢٢٠ - ٣٠٧ - ٣١٠
 نابليون الثالث ٢٩٩
 د. نادية عبد الرزاق السنهورى ١٦٤ - ١٦٥ -
 ١٨٢
 نازلى فاضل (الأميرة) ١٩
 النقراشى (محمود فهمى) ٥٣ - ٩٢ - ١٨٧
 نجيب محفوظ (الطيب) ١٢٩
 النحاس (مصطفى) ٥٩
 نهاد القاسم ٢٤٤
 نوبار ٢٤٤

(هـ)

- هدى شعراوى ٦٦
 هبيرة (قضية) ٣٣٢
 هنرى روبيير ٢٩٧
 هنرى سكاكينى - ٥٣
 هوريو ١٨٠
 هيئة قضايا الدولة ١٢٠ وما بعدها
 هيچور (فكتور) ١٠٨
 هيكل (د. محمد حسين) ٥٩

(ى)

- يوسف حلمس ٢١٠
 يوسف وهبة ٢٦
 يوجيني (الإمبراطورة) ٢٩٩
 يونس صالح ٩٨

(و)

- والدك روسو ٢٩٩ - ٣١٥
 وحيد رأفت ٢١٠
 وحيد يسرى ٢٠٢
 ولیم یت ١١٨
 الوردانی ٣٧
 وهيب دوس ٨٧

٢ - فهرست المراجع العربية

- ١ - مذكرات هلباوى بك - مخطوط.
- ٢ - الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية.
- ٣ - على هامش الدستور - للأستاذ محمد الشريف.
- ٤ - أشهر القضايا المصرية - للأستاذ محمود كامل.
- ٥ - من يوميات محام - للأستاذ عبده حسن الزيات.
- ٦ - المحاماة قديماً وحديثاً - للأستاذين عزيز خانكى بك - وجميل خانكى.
- ٧ - المرافعة - للأستاذ حسن الجداوى.
- ٨ - مرافعات - للأستاذ حسن الجداوى.
- ٩ - تراجم - للدكتور محمد حسن هيكل باشا.
- ١٠ - عبد الرزاق أحمد السنهورى من أوراقه الشخصية. د. نادية عبد الرزاق السنهورى ود. توفيق الشاوى.
- ١١ - مذكرات قضائية (جزءان) عبد الحليم الجندى.
- ١٢ - مذكرات سعد زغلول (جزءان).
- ١٣ - سعد زغلول (مولد ثورة) محسن محمد.
- ١٤ - مذكرات إسماعيل صدقى.
- ١٥ - عبد الخالق ثروت مشرفة أحمد المليجى.
- ١٦ - مقال د. عثمان حسين عيد الله مجلة المحاماة يونيو ١٩٨٨.
- ١٧ - مجلة هيئة قضايا الدولة يونيو ١٩٨٩ الإمام السنهورى.
- ١٨ - مجلة مجمع اللغة العربية.
- ١٩ - من أجل مصر - البطل أحمد عصمت عبد الحليم الجندى.
- ٢٠ - الإمام محمد عبده عبدالحليم الجندى دار المعارف
- ٢١ - فى أعقاب ثورة ١٩١٩ عبد الرحمن الرافعى
- ٢٢ - مقدمات ثورة ١٩٥٢ عبد الرحمن الرافعى
- ٢٣ - مجلة مجلس الدولة ١٩٥٠
- ٢٤ - المحامون وسيادة القانون عبد الحليم الجندى
- ٢٥ - الأعمال التحضيرية للقانون المدنى الجزء الأول.

- ٢٦ - مجلة القانون والاقتصاد ١٩٣١.
- ٢٧ - مجلة القانون والاقتصاد ١٩٣٦.
- ٢٨ - نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي عبد الحليم الجندى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- ٢٩ - تقرير مجلس الدولة ١٩٤٧ - ١٩٤٨
- ٣٠ - تقرير مجلس الدولة ١٩٤٩ - ١٩٥٠
- ٣١ - تقرير مجلس الدولة المؤرخ أول أبريل ١٩٥١
- ٣٢ - تقرير مجلس الدولة ١٩٥٣ - ١٩٥٤
- ٣٣ - القضية المصرية (١٨٨٢ - ١٩٥٤ - وزارة الثقافة - مصر. المطبعة الأميرية).

٣ - فهرست المراجع الأجنبية

1. The Life OF Sir Edward Marchall Hall- Marabanks. - ٣٤
2. La Profession d'Avocat. Appelton. - ٣٥
3. Menus. Propos Sur Les Avocats. Marcel Audibert. - ٣٦
4. Le Bateau. Fernand Payen - ٣٧
5. Les Anthologies Des Avocats Francais Contemporains. Frnand Payen. - ٣٨
6. L'Avocat' Henri Robert. - ٣٩
7. Un Avocat De L'Année 1832. Henri Robert. - ٤٠
8. Le Palais et La Ville Souvenirs Henri Robert. - ٤١
9. Les Grands Procés De I Histoire Henri Robert - ٤٢
10. Models Francais Edmond Proces. - ٤٣
11. Journal de L'universite des Annales 1911-1912. - ٤٤
12. Les Grands Proces de l'année 1932. Geo. London. - ٤٥
13. Leur Manière-Hesse et Nastrong Garsset. - ٤٦
14. L'Egyptienn' Revue Mensuelle. Fonda trice Hoda - ٤٧
- Charaowi. Mci 1936 12ehAn. N. 122

٤ - فهرست الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة
١١	الفصل الأول : إبراهيم الهلباوى بك
١٢	مدرسة جمال الدين
٢١	بواكير المجد
٣١	جلاد دنشواى
٣٥	محامى القضايا الوطنية
٥٤	الحريف العاصف
٦٩	فتحت الجلسة
٩٢	رفعت الجلسة
١٠٧	الفصل الثانى : الأستاذ مصطفى مرعى
١٠٩	مهمة الحياة
١٢٠	فى هيئة قضايا الدولة
١٢٦	إلى المحاماة
١٣١	فى مجمع اللغة
١٣٤	الرجل والمحامى
١٣٩	قضية محمود زكى
١٣٩	المذكرة النموذج ١٣٩
١٥٩	الفصل الثالث : عبد الرزاق أحمد السنهورى
١٦٠	تقديم
١٦٣	عروس البحر الأبيض
١٦٩	بين سعد زغلول ومصطفى كامل
١٧٤	مدرسة القضاء الشرعى
١٧٦	السنهورى من أوراقه الشخصية
١٧٩	رسالتان للدكتوراه ودبلوم
١٨٤	جامعة القاهرة والقانونى المدنى:

١٨٧	إلى المحاماة
١٨٩	مع الملوك
١٨٩	مشروع مصر والعالم العربي
١٩٤	مجمع اللغة العربية
١٩٦	مجلس الدولة:
١٩٩	مجلس الدولة من ١٩٤٦ - ١٩٤٩
٢٠١	قضايا الأفراد
٢٠٤	قضايا الموظفين
٢٠٥	قضية مجلس الدولة
٢٠٨	السنهورى فى مجلس الدولة
٢١٧	فى الجلسة
٢١٩	قضيتا مصر الفتاة
	أو الاشتراكية
٢٢١	قضيتا بورصة القطن
٢٢٣	قضيتا الاجتماعات والمظاهرات
٢٢٤	إلغاء المعاهدة
٢٢٧	مصر تحت الأحكام العرفية:
٢٢٨	قضايا الأساتذة: فؤاد سراج الدين - عبدالفتاح حسن - فتحى رضوان
٢٣٢	مع الثورة:
٢٣٢	اليوم الأول
٢٣٤	اليوم الثانى
٢٤٥	العربى الكبير
٢٥١	الفصل الرابع: مارشال هول
٢٥٢	المحامى الموهوب
٢٦٦	مع السلطة الثانية
٢٦٩	مع السلطتين الثالثة والرابعة
٢٧٨	المحامى الفنان
٢٨٥	فى محكمة الجنائيات

صفحة

٢٨٥	قضية مرجريت فهمى
٢٩٠	قضية يارموث
٢٩٣	قضية روبرت رود
٢٩٧	الفصل الخامس : هنرى روبر
٢٩٧	مهامى العصر الحديث
٣٢١	فى محكمة الجنح
٣٣٢	قضية همير
٢٤٣	فى محكمة الجنائيات
٣٤٣	قضية بوبوروش

للمؤلف

- ١ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح طبعة دار المعارف
- ٢ - الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول طبعة دار المعارف
- ٣ - مالك بن أنس إمام دار الهجرة طبعة دار المعارف
- ٤ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة طبعة دار المعارف
- ٥ - الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج طبعة دار المعارف
السلفي
- ٦ - الإمام محمد عبده طبعة دار المعارف
- ٧ - الإمام جعفر الصادق طبعة دار المعارف
- ٨ - الشريعة الإسلامية طبعة دار المعارف
- ٩ - نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
الفقه الإسلامي
- ١٠ - أئمة الفقه الإسلامي طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- ١١ - نجوم المحاماة في مصر وأوروبا طبعة دار الاتحاد العربي
- ١٢ - مجموعة مذكرات قضائية (جزأين) طبعة هيئة قضايا الدولة بمصر
- ١٣ - توحيد الأمة العربية طبعة وزارة الثقافة - مصر
- ١٤ - تطوير التشريعات طبعة وزارة الثقافة - مصر
- ١٥ - من أجل مصر (البطل أحمد عصمت) المطبعة التجارية - مصر
- ١٦ - القرآن والمنهج العلمي المعاصر طبعة دار المعارف
- ١٧ - في السيرة النبوية طبعة دار المعارف
- ١٨ - نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي
الإسلامي

أبحاث منشورة

- ١٩ - الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع بحث مقدم لمجلس الأمة المصري عند إعداد الدستور سنة ١٩٧١.

- ٢٠ - الشبهات التي تثار حول تطبيق الشريعة - في مجلة هيئة قضايا الدولة سنة ١٩٧٨
العصر الحديث - بحث مقدم لمؤتمر الفقه الاسلامي بالرياض سنة ٧٦
- ٢١ - نحو تفتين جديد للعقوبات من الفقه الإسلامي بحث مقدم للمؤتمر الثامن لمجمع البحوث بالأزهر
- ٢٢ - نحو قانون للمعاملات من الفقه الإسلامي بحث بالانجليزية ألقى في احتفالات مهرجان العالم الإسلامي لندن سنة ١٩٧٦
Towards a contemporary civil law based on Islamic Legislation.
- ٢٣ - نحو مشروع للدستور الإسلامي بحث ألقى في المؤتمر العالمي للعيد الألفي للأزهر (مارس ١٩٨٣) مطبوعات المؤتمر
- ٢٤ - أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الدعوات الأخرى بحث مقدم لمؤتمر محمد بن عبد الوهاب جامعة محمد بن سعود الرياض ١٩٧٩
- ٢٥ - بطلان التفتيش بغير إذن مجلة المحاماة ١٩٣٣
- ٢٦ - تصرفات السفهاء قبل الحجر مجلة المحاماة ١٩٣٧
- ٢٧ - التشريع العربي كتاب الوطن العربي دار المعارف
- ٢٨ - الملكية الفنية مجلة مجمع الفقه الإسلامي بجدة
- ٢٩ - بيع المتجر مجلة مجمع الفقه الإسلامي بجدة

١٩٩١ / ٨٧٦٩

رقم الإيداع

ISBN

977-02-3552-0

الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ٧٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)